

د. محمد عماره

العطاطي خضراء  
للسنة الامامية



العطاء الحضاري للإسلام

الطبعة الأولى لمكتبة الشروق الدولية

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م



٩ شارع السعادة . أبراج عثمان . روکسى . القاهرة

تلفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ - ٤٥٠١٢٢٩ - ٢٥٦٥٩٣٩

Email: <shoroukintl @ hotmail.com>

<shoroukintl @ yahoo.com>

# العطاء الحضاري للإسلام

د. محمد عمارة



## تمهيد

# عن الميلاد القرآني للأمة والحضارة

هذه الأمة الإسلامية خرجت من بين دفتي كتاب.. فمن «رحم» القرآن الكريم ولدت هذه الأمة، عندما صنعت سورة وآياته وصاغت وصبت «الجواجم الخمسة» التي بلورتها ووحدتها أمة متميزة من دون الناس.

فمن القرآن الكريم كان «جامع العقيدة» الواحدة والموحدة للأمة ﴿أَمْنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ أَمْنٍ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرَسُولِهِ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رَسُولِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطْعَنَا غُفرانُكَ رِبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمُصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وفي القرآن الكريم جاء «جامع الشريعة» الواحدة، الجامحة للأمة في الأصول والمبادئ والقواعد والقيم وفلسفة التشريع وروح القانون، والحاكمة لاختلاف وتنوع مذاهبيها في الفروع والجزئيات والمتغيرات ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

وفي آيات القرآن الكريم جاء الحديث عن «وحدة الأمة»، فريضة جامعة لتنوعها في الشعوب والقبائل والألوان واللغات ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وفي القرآن الكريم شاعت القيم الثوابت، التي صبّغت «حضارة الأمة».. المدنية.. بصبغة دين الإسلام، فاصطبغ «النّسبي» بـ«المطلق» لأول مرة في تاريخ الحضارات ﴿صَبَّغَ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ صَبَّغَهُ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

﴿لَكُلٌّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرِيعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

ولهذه الجوامع الأربع.. في العقيدة.. والشريعة.. والأمة.. والحضارة.. توحدت «دار الإسلام» فعرف الوطن الإسلامي «الأممية» الجامعية للأقاليم و«الولايات» والأقطار، التي تتمايز في إطار وحدة «دار الإسلام».. فهى «المحيط» الجامع الذى يحتضن «جزر» الشعوب والقبائل والأجناس واللغات والقوميات.. جعلًا إلهيًا، وإرادة ربانية، عبرت عنها آيات القرآن الكريم.

## عيد الميلاد

ولأن هذا القرآن الكريم قد بدأ نزوله فى شهر رمضان.. الشهر الذى كان يتحنى.. يتعبد.. فيه محمد بن عبد الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلبعثة فى غار حراء، مستخلصاً نفسه استخلاصاً كاملاً من وثنية الجاهلية وجاهليتها وثنيتها، وباحثاً عن الدين الحق، ومتخذاً لذلك بقايا الحنيفة من ملة إبراهيم الخليل - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. سبيلاً.

ولأن لحظة إنبثاق النور القرآنى، قد كانت فى ليلة القدر.. أحدى الليالي الودر فى العشر الاواخر من شهر رمضان سنة ١٢ ق. هـ سنة ٦٦٠ مـ. فقد غدت هذه الليلة - ليلة ميلاد النور القرآنى - خيراً من ألف شهر إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وما أدركك ما ليلة القدر (٢) ليلة القدر خير من ألف شهر (٣) تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر (٤) سلام هي حتى مطلع الفجر سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعَ الْفَجْرِ [القدر: ١٥]. فقد غدا هذا الشهر، الذى شرف بهذه الليلة، وبلحظة انبثاق النور القرآنى فيها، غدا ميقات واحدة من الفرائض الإسلامية - فريضة الصوم.. رابع الأركان الخمسة للإسلام.. فإقامة هذا الركن، وأداء هذه الفريضة الإسلامية، فى هذا الشهر العظيم، هو الاحتفال الإسلامي بتنزول القرآن الكريم، عيد ميلاد أمّة الإسلام، ولحظة التأسيس للدين القيم..

ومع أن عدة الشهور عند الله الله اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم - هي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم - إِنَّ عَدَدَ الشُّهُورِ عَنَّ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ [التوبه: ٣٦].

ومع أن شهر رمضان ليس من هذه الأشهر الحرم، فلقد فاق في الفضل هذه الأشهر الفضيلة، وذلك بسبب نزول القرآن فيه.. فالأشهر الحرم: هذة سلام، لا يجوز فيها القتال.. وموسم تجارات لتنمية زينة الحياة الدنيا.. بينما رمضان قد غدا عيد ميلاد الوحي الخالد، والظرف الزمانى لأنبثق نبا السماء العظيم - القرآن الكريم - الذى ولدت من بين دفتيه الرسالة الخاتمة الخالدة لخير أمة أخرجت للناس - رسالة الدين والدنيا.. والدنيا والأخرة - للامة الوارثة لجميع مواريث النبوات والرسالات، والمؤمنة على دين الله الواحد فى مرحلة اكتماله بشرعية محمد ﷺ ..

ولهذه الحكمة.. وإعراضاً عن هذا التكريم لهذا الشهر العظيم - شهر رمضان - كان انفراده واحتياصه بالذكر - دون الشهور الأخرى - في القرآن الكريم.. فلم يذكر من أسماء الشهور في القرآن اسم سواه ..

ولم يكن اختصاص رمضان بالذكر في القرآن الكريم لأن ميقات فريضة الصيام.. فالحج - وهو كالصوم واحد من أركان الإسلام - أشهر معلومات - هي شوال وذو القعدة وذو الحجة - ﴿الْحَجَّ أَشَهُرٌ مَّلُومَاتٌ فَمَنْ فَرِضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثٌ وَلَا جَدَالٌ فِي الْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٩٧] .

ومع ذلك لم يذكر اسم أى منها في القرآن الكريم - رغم أن فيها شهرين من الأشهر الحرم ..

وكذلك كان الحال مع شهر ربيع الأول، الذي حدثت فيه الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة، فتم فيه إنقاذ الدعوة من الحصار، والتأسيس للدولة، والفتح في الدين.. ومع ذلك لم يذكر هذا الشهر في القرآن.. كما لم يجعله الإسلام ميقات الصيام، كما كان الحال في الشريعة الموسوية، عندما كان الصوم احتفاء بنجاة موسى - عليه السلام - من فرعون..

\* \* \*

هكذا.. لا يترك القرآن الكريم الإجابة عن سؤال الباحث عن «حكمة» هذا التوقيت، وذلك الاختصاص لمجرد الاجتهاد والاستنتاج.. فآياته البينات قد تحدثت عن «لحظة الميلاد» للامة الإسلامية الخاتمة، تلك التي تجسدت في لحظة «الظهور للدين» الذي ميز

هذه الأمة، وجعل من شريعتها الطور الرسالي الخاتم لرسالات الدين الإلهي الواحد، والكمال والاستكمال لكارم الأخلاق.. ولقد كانت بداية هذه اللحظة هي نزول «الروح الأمين» على «الصادق الأمين» بأولى آيات القرآن الكريم، لحظة «مطلع الفجر» في ليلة من الليالي الودر، في العشر الأواخر من رمضان في «غار حراء»..

في هذه اللحظة، التي أضاءت فيها الأرض بنداء السماء (﴿أَفَرَأَ يَاسِمُ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾) خلق الإنسان من علق (١) (﴿أَفَرَأَ وَرِبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾) (٢) الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمَنْ (٣) عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) [العلق: ١ - ٥]. بدأ نزول القرآن في ليلة القدر.. وهي لحظة «مطلع الفجر» - الذي هو مولد النهار - وفيها نزل الكتاب - الذي ولدته هذه الأمة.. عندما خرجت عقيدتها وشرعيتها وحضارتها، ووحدتها في «الأمة.. والدار» من بين دفاتي هذا الكتاب الكريم.

ولأن هذا «الميلاد» كان في شهر رمضان، فلقد كان تكريمه وصومه - دون غيره من الشهور - الاحتفال الإسلامي بهذا العيد لهذا الميلاد..

ولأن هذا الميلاد كان ميلاد الوحي المؤسس للأمة، فلقد شاء الله أن تكون فريضة الاحتفال به - فريضة الصوم - هي مدرسة بناء الإرادة الإسلامية، المجددة، أبداً الفتورة الأمة، كي تستعيد دائمًا عافية الميلاد الجديد، وصحة الاجتهد والتتجدد، الكاشف عن فعالية كتاب التأسيس.. فقال، سبحانه وتعالى، وهو يشرع لهذه الفريضة، («شهر رمضان الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبِيَنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهَدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلِيَصُمِّمْهُ وَمَنْ كَانَ مِرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعَدْدَةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخْرَى يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلَتُكَمِّلُوا الْعِدَةَ وَلَتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاهُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ») [البقرة: ١٨٥].

وهكذا نجد أنفسنا أمام «الحكمة» التي جعلت صيامنا في رمضان، وليس في شهر من الأشهر الحُرُم.. وليس، أيضاً في ذكرى نجاة الإسلام ورسوله وأمته - بالهجرة - من الحصار والاقتحام.. أمام «الحكمة» التي جعلت صيامنا إحياءً لذكرى نزول القرآن، الذي مثل «الرحم» الذي ولدته هذه الأمة، عندما خرجت مقوماتها وثوابتها والروح السارية في حضارتها والصبغة المميزة لعمرانها.. عندما خرج كل ذلك من بين دفاتي القرآن الكريم، ومن سور وأيات هذا النبأ العظيم.

## فكيف يكون الاحتفال؟

وإذا كان احتفال الناس، أفراداً وأسرًا وشعوبًا وأممًا، بالأعياد والمناسبات، لابد وأن تصطبغ مظاهره وتعكس وقائعه معانى ودلالات الحدث الذى به يحتفلون، ولذكراه يحيون.. إن كان انتصاراً عسكرياً، فإن مظاهر القوة ومعالمها تطبع وقائع الاحتفال.

وإن كان استقلالاً عن الاستعمار، أو تحريراً للثروات، أو استرجاعاً للأرض.. إلخ.. إلخ.. صبغت معانى الذكرى احتفالات الذين يتذكرون ويحتفلون.. فإن احتفال المسلمين، عندما يصومون شهر رمضان، بذكرى «اللحظة»، التى بدأ فيها نزول القرآن، على قلب رسول الإسلام عليه السلام مطلوب منه.. من هذا الاحتفال.. أن يصطبغ بصبغة ذلك الحدث العظيم.. نزول القرآن، الذى كان «الرحم» الذى ولدت منه المقومات التى صنعت أمة الإسلام، ومثلت الروح السارية والضامنة لتواصلها الحضارى على مر الدهور.. إن تأمل هذه المعانى، وتدبّر هذه الحقائق، سيسطع يدنا على حجم «الخلل.. والقصور» اللذين أصابا ويسبّان «معانى.. ومعالم» احتفالنا فى رمضان بذكرى نعمة نزول «النبأ العظيم»!

ليس فقط في تحويل شهر الصوم إلى شهر للكسل وتدنى الإنتاج.. بينما هو، في حقيقته، «مدرسة تربية الإرادة» على الفتورة التي تجعل منه التجديد للطاقات والملكات والقدرات التي تعين الأمة على قهر المخاطر والتحديات، وتنمية معالم الابتكار والإبداع.. وليس، فقط لوقف الأكثرين عند «الطرب» لسماع القرآن.. واكتفاء الكثرين بمجرد «تلاوة»، بينما لا «يتدبّر» إلا الأقلون!.. فلا طرب السماع، ولا مجرد التلاوة.. بل ولا حتى الوقوف عند «التدين للمعاني» بكافٍ في الاحتفال الذي يحيى المعنى الحقيقي لهذا العيد الذي ولدت فيه أمة الإسلام..

لقد غدت أمانينا - في التعامل مع القرآن الكريم - أن نكثر من حافظيه.. ننفق في ذلك الأموال، ونعقد له الاحتفالات، ونوزع الجوائز على الحفاظ.. ورغم ما في ذلك من خير كثير، يربطنا بلغة القرآن، ويقوم السنّتنا بأسلوبه المعجز وبيانه الأخاذ.. إلا أن الوقوف عند الحفظ لم يكن هو المقصود من وراء الوحي بهذا النبأ العظيم.. حتى أن المرء ليدهش

- من فرط ما وصلنا إليه - عندما يعلم أن جيل الصحابة الفريد، الذي شهد الوحي، وغيره بوجه الدنيا ومجرى التاريخ، لم يكن فيه من حفاظ القرآن إلا عدد قليل! لقد كانوا فقهاء للقرآن، لا مجرد حفاظ له، وكانوا عاملين به ومجسدين لمقاصده، لا مجرد مرتلين لأياته!

فعبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - يقول: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن».. أما عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - فهو القائل - تعبيرًا عن نوع علاقة الصحابة بالقرآن .. ونبوءة بالحال الذي صرنا إليه نحن -: «كان الفاضل من أصحاب رسول الله - ﷺ - في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن .. وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن، منهم الصبى والأعمى ولا يرزقون العمل به»!(١).

ففي عصر الازدهار، الذي غير فيه الجيل الفريد من الصحابة وجه الدنيا ومجرى التاريخ - بالقرآن - كانت الغلبة لفهم القرآن وفقه مقاصده والعمل به .. وليس للحفظ والتكرار .. بينما ارتبط عصر تراجعنا الحضاري بغلبة منهاج الحفظ وكثرة أعداد الحفاظ، والمفاخرة بكثرة المحفوظات .. وما زلنا - مع شديد الأسف - نقف من القرآن عند الحفظ والتكرار، والاحتفال بالحفظ والحافظين، رغم أن المعاجم والتقنيات الحديثة قد فاقت في الحفظ ملكات الحفاظ !

\* \* \*

إن نزول القرآن الكريم إنما مثّل لحظة الميلاد لأمة الإسلام: لأنّه مثّل «النور» الذي خرجت إليه الأمة من ظلمات الجahiliyah .. ومثّل «الهدي» الذي تعمّت به بعد حيرة الصلالات .. وفي كلمة واحدة جامعة، فلقد مثّل القرآن الكريم يتبعو «الإحياء» الإسلامي، الصالح دائمًا وأبدًا لطى صفحات الجمود والتقليد والموات، بما يقدم من سبل للاجتهاد والتجدد والإبداع ..

---

(١) القرطبي [الجامع لأحكام القرآن] ج ٤، ح ٤٠، طبعة دار الكتب المصرية.

فـ«الإحياء» في كل ميادين العمران - عمران النفس الإنسانية بما يهذبها ويرتقى بملكاتها.. وعمران الواقع المادي بما يحسن ويجمله من ألوان المدنية - هنا «الإحياء» الإسلامي هو أخص المصطلحات المعبرة عن رسالة هذا «النبيوع» الذي نصوم رمضان احتفالاً بذكرى لحظة نزوله على قلب رسولنا محمد بن عبد الله ﷺ وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُو لَهُ وَلِرَسُولٍ إِذَا دَعَاكُمْ لَمَا يُحِبُّكُمْ وَأَعْلَمُو أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فنحن إذ نصوم رمضان، إنما نحتفل بذكرى اللحظة القدسية التي بدأ فيها نزول «النبأ العظيم»، ذلك «النبيوع الإلهي» الذي مثل «الرحم» الذي ولد منه الأمة الخاتمة، ومن بين دفتيه خرجت المقومات الثوابت للرسالة العالمية الخاتمة - في «العقيدة».. و«الشريعة».. و«القيم» التي ميزت «الحضارة» بالروح الخالدة، رغم تطورها عبر الزمان والمكان.. كما وحدت «الأمة»، مع التنوع في القبائل والشعوب والأقوام.. وكذلك وحدت «دار الإسلام»، مع التمايز في خصوصيات الأقاليم والأوطان.

وإذا كانت مصداقية «رسالة» أي احتفال بذكرى لحظة الميلاد، هي في مدى النجاح الذي يتحقق الاحتفال في حضور «المعنى والمغزى» إلى واقع الذين يحتفلون.. فهل ننجح - في رمضان - في استعادة روح «الإحياء» الإسلامي، الذي مثله القرآن العظيم، عندما أخرج هذه الأمة من الظلمات إلى النور؟  
لنجاول.. ولنجتهد.. فكل مجتهد نصيب..

لقد من الله، سبحانه وتعالى، علينا «بحفظ» هذا الذكر الحكيم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرْزَلُنَا الذَّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] لكنه افترض علينا «إقامة» هذا الدين؛ لنجدد بآقامته «الأمانة» التي حملناها عندما سعدنا بتعميم الدين بهذا الدين العظيم.

\* \* \*

# الفصل الأول

## في حقوق الإنسان

في ١٨ صفر سنة ١٣٦٩هـ - ١٠ ديسمبر سنة ١٩٤٨م أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان»، ذلك الذي جَسَدَ وَقَنَّ ثمرات جهود ونضالات إنسانية كثيرة، في حقول الفكر وميادين المعاناة، على درب سعي الإنسان لتقنين ماله من حقوق في مواجهة قوى الاستبداد والاستغلال..

وإذا كانت هناك شواهد عديدة على أن فلسفة مبادئ هذا «الإعلان» قد جاءت امتداداً لفلسفة فكرية الحضارة الغربية - أولاً وبالدرجة الأولى - في حقوق الإنسان.. فإن هناك شواهد أكثر وأكثر على أن التطبيق لمبادئ هذا «الإعلان» قد ظل حتى الآن - في كثير من الحالات - وقفاً على الإنسان الغربي قبل سواه وأكثر من سواه.. إن لم يكن دون سواه؟!..

وإذا كان المقام مقام المقارنة بين عطاء الإسلام في هذا الميدان وعطاء هذا «الإعلان».. فإن هناك ما هو أهم من الفارق الزمني والعرقية التاريخية التي جعلت عطاء الإسلام في ميدان حقوق الإنسان سابقاً على هذا «الإعلان» بما يقرب من أربعة عشر قرناً من الزمان.. هناك تُميّز فلسفة الإسلام إزاء حقوق الإنسان عن فلسفة الحضارة الغربية التي جسدها وقنتها هذا الإعلان.. فالفارق بين النظرة الإسلامية والنظرة الغربية لحقوق الإنسان ليست، فقط، زمنية.. ولا كمية.. وإنما هي، أيضاً وبالدرجة الأولى «نوعية» و«كيفية».. وتلك هي المهمة التي تطمح للبرهنة عليها، والتمثيل لها، هذه الصفحات..

## واجبات.. ولن يكفي مجرد حقوق

إن هذا الذي عرفته فكرية الحضارة الغربية، حديثاً، في باب «حقوق» الإنسان، قد عرفته الحضارة الإسلامية، بل ومارسته، قديماً، لا كمجرد «حقوق» للإنسان، وإنما «فرائض إلهية وتوكيلات شرعية»، لا يجوز لصاحبها - الإنسان - أن يتنازل عنها أو يفرط فيها، حتى بمحض اختياره إن هو أراد!..

وذلك زاوية لرؤيه القضية، ودرجة في تناولها، لا شك أنها إضافة « نوعية » و« كيفية ».. تزيد هذا الفكر غنى وأصالة وعمقاً، وتتوفر له المزيد من الفعالية وقوه التأثير..

ولقد أجملت الشريعة الإسلامية هذه الحقيقة عندما جعلت الحفاظ على «النفس» و«الدين» و«العقل» و«العرض» و«المال» - وهي جماع السياج الحافظ والحق لحقوق الإنسان - عندما جعلتها فرائض إلهية وتوكيلات شرعية، ولن يكفي مجرد «حقوق» يجوز التنازل عنها، حتى بالاختيار.. بل لقد جعلتها «فرائض كفائية» - اجتماعية وهي أكدر، في نظر الشريعة، من «فرائض العين» - الفردية.. فتخالف فرض الكفاية تأثيم به الأمة، بينما الإثم بتخلف فرض العين خاص بالذات الفردية!..

● فالحفاظ على «الحياة»، بنظر فكرية الحضارة الغربية، هو «حق» من حقوق الإنسان.. لكن لصاحب هذا «الحق» حرية التنازل عنه بالاختيار.. ولذلك لا تجرم هذه الحضارة من يتنازل عن حقه في الحياة بالانتحار.. أما النظرة الإسلامية فإنها ترى في الحفاظ على الحياة فريضة إلهية وواجب شرعاً، لا يجوز، حتى لصاحبها، أن يفرط فيها.. بل لقد أوجبت عليه القتال حتى النصر أو الشهادة دفاعاً عن مقومات هذه الحياة، كما حرمت عليه القنوط الذي يقوده إلى الانتحار، الذي رأته جريمة يائمه مرتكبها إثماً كبيراً..

● و«العلم».. في فكرية الحضارة الإسلامية، ليس مجرد «حق» من حقوق الإنسان.. بل هو - كالنظر والتفكير - فريضة إلهية وتوكيل شرعى واجب، يائمه الإنسان إن هو فرط فيه.. ولا يجوز له التنازل عنه بحال من الأحوال.. بل إن النفقة والتخصص والبراعة في مختلف العلوم والمعارف تزيد في الدرجة توكيلاً وفي مراتب الفريضة

علوا، إلى الحد الذي جعلها الإسلام «فرض كفاية».. أي فريضة اجتماعية، أشد توكيداً من الفرائض العينية - الفردية».. ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لَيَنْفِرُوا كَافَةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَهَّمُوا فِي الدِّينِ وَلَيُنَذِّرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لِعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبه: ١٢٢].

● و«المشاركة في الشؤون العامة» سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية.. إلخ.. أي الإسهام الإيجابي - قدر الطاقة - في إقامة الاجتماع الإنساني وال عمران البشري الراشد.. في النظرة الإسلامية، ليس مجرد «حق» من حقوق الإنسان.. وإنما هي فريضة واجبة؛ لأنها جزء من إقامة فريضة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ﴿وَلَتَكُنْ مِّنَّكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ٤٠]، التي تتحقق باقامتها خيرية الأمة ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أَخْرَجْتُ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وتنتفي عنها اللعنة ﴿لَعْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مُرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [٧٨] كانوا لا يتأهون عن منكر فعلوه لبيس ما كانوا يفعلون ﴿[المائدة: ٧٨] - [٧٩].. بل إن التقرير في هذا الواجب إنما يفتح على المفرط بباب الخروج من جماعة الأمة - والعياذ بالله - !.. فمن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم!..

فالمشاركة الإيجابية في الشؤون العامة ليست مجرد «حق».. ولذلك، فإن «السلبية»، في النظرة الإسلامية، ليست حقاً من حقوق الإنسان، حتى وإن اختارها دون إكراه!..

● و«الحرية».. رأتها وتراءها حضارتنا الإسلامية فريضة إلهية وواجبًا شرعياً، هي الأخرى؛ لأنها مساوية «للحياة».. ولقد أدرك علماؤنا السر في جعل «تحرير الرقبة» كفارقة عن «القتل الخطأ».. فتبهوا على ما في الرق والعبودية من معنى «الموت»، وما في العتق والحرية من معنى «الحياة»!.. فمن أخرج من الحياة نفسها، بقتالها خطأ، فعليه أن يُدخل في الحياة نفساً أخرى، بتحريرها من موت الاسترقاق.. وفي تفسير قول الله، سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ قُلِّ مُؤْمِنًا خَطَا فَتَحرِيرُ رَقْبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ

يصدقوا ﴿النساء:٩٢﴾ . يقول علماؤنا: إنه - (أى القاتل) - لما خرج نفساً من جملة الأحياء، لزمه أن يدخل نفساً مثلكما في جملة الاحرار: لأن إطلاقها من قيد الرق كإحياءها، من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات، إذ الرق أثر من آثار الكفر، والكفر موت حكمًا ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ [آلأنعام: ١٢٢] (١).

وليس ذلك بغريب على حضارة دين ذهب قرآن الكريم إلى أن جعل هذا الواجب «الحرية». جماع رسالة خاتم الرسل والأنبياء عليهما السلام.. فغايات الرسالة، في الجانب الإنساني، صياغة الإنسان: المشارك في شئون أمته.. والراعي للحلال والحرام في علاقاته بالأشياء.. والمحرر من القيود والأغلال ﴿الذين يَعِنُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِينَ﴾ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهياهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخباث ويفصل بينهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴿الْأَعْرَاف١٥٧﴾.

● و«العدل».. فى النظرة الإسلامية فريضة.. وليس مجرد «حق».. وهو يعني تحقيق التوازن والوسطية، التى تحقق التكامل بين الإنسان وبين الجماعة - كعضو فى جسد حى - .. والإسلام لا يقف بهذا العدل عند الجانب القانونى وحده، وإنما يعممه فى كل الميادين.. ومنتها ميدان الثروات والأموال - العدل الاجتماعى..

(١) النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) ج ١ ص ١٨٩. طبعة القاهرة سنة ١٣٤٤هـ.

وإذا كان القرآن الكريم يحدد نطاق الإنفاق عندما يقول: ﴿ وَيُسْأَلُونَكَ مَاذَا يُفْقِدُونَ قُلِ الْعَوْنَى كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٩] .. فإن الرسول الكريم ﷺ، هو القائل: «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له.. قال (الراوى: الصحابي أبو سعيد الخدري، رضي الله عنه) فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منها في فضل <sup>(١)</sup> .. وهو القائل في التكافل - المحقق للتوازن - العدل - كمعيار للدخول أو الخروج في ذمة الله ورسوله: «من احتكر طعاماً أربعين ليلة فقد برأ من الله تعالى وبرأ الله تعالى منه، وأيما أهل عرصه <sup>(٢)</sup> أصبح فيهم أمرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تعالى» <sup>(٣)</sup> .. وعلى هذا الدرس سارت تطبيقات الحضارة الإسلامية.. فوجدنا الراشد الثاني عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يقسم: «والذي نفسي بيده! ما من أحد إلا له في هذا المال حق، أعطيه أو منعه، وما أحد أحق به من أحد، وما أنا فيه إلا كأحدهم.. فالرجل وبلاوه.. والرجل وقدمه.. والرجل وغناوه.. والرجل وحاجته.. هو مالهم يأخذونه، ليس هو لعمر ولا لآل عمر <sup>(٤)</sup> ، ووجدنا الراشد الرابع على بن أبي طالب، كرم الله وجهه، يقول: «إن الله فرض في أموال الأغنياء أقواء الفقراء، فما جاء فقير إلا بما متع به غنى!.. إن الغنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة.. وإن المقل غريب في بلادته!.. أنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، لا فضل فيه لأحد على أحد!» <sup>(٥)</sup> .. ووجدنا الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، الذي أعاد إقامة ميزان العدل، بعد أن اختل.. يعلن في الناس أن «المال نهر أعظم.. والناس شرُّ لهم <sup>(٦)</sup> في سواء!» <sup>(٧)</sup> .

(١) رواه مسلم وأبو داود والإمام أحمد.

(٢) العرصة: الملة والناحية والحي.

(٣) رواه الإمام أحمد.

(٤) (طبقات ابن سعد) ج ٢ ص ١ من ٢١٥، ٢١٦، ٢١٩ طبعة القاهرة - دار التحرير.

(٥) «نهج البلاغة» ص ٢٠٨، ٢٦٦، ٢٧٢ طبعة القاهرة - دار الشعب و(شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد) ج ٧ ص ٣٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م).

(٦) الشرب: النصيب، والماء.

(٧) الأصفهاني: (كتاب الأغاني) ج ٩ ص ٢٢٧٥ طبعة القاهرة - دار الشعب.

فالعدل فريضة.. وليس مجرد حق من الحقوق.. وفي سبيلها يجب الجهاد، حتى النصر أو الشهادة.. وفي ذلك يقول ابن حزم الأندلسي (٢٨٤ هـ / ٩٩٤ مـ - ٦٤١ مـ): «وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، ويجبهم السلطان على ذلك، إن لم تقم الزكوات بهم، ولا في سائر أموال المسلمين بهم، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا يد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يكفهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة.. ولا يحل لسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاماً فيه فضل عن صاحبه لسلم أو لدمى.. وله أن يقاتل عن ذلك، فإن قُتل فعلى قاتله القوْد، وإن قُتل المانع فإلى لعنة الله؛ لأنَّه منع حَقّاً، وهو طائفة باغية. قال تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأَخْرَى فَقَاتِلُوهُ أَتِيَ تَبْغِيْ حَتَّى تَفَئِي إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]. ومانع الحق ياغ على أخيه الذي له الحق.. وبهذا قاتل أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، مانع الزكاة»<sup>(١)</sup>.

إنها فلسفة متميزة، للإسلام وحضارته، في هذا الميدان.. فالأمر ليس مجرد «حقوق» للإنسان.. وإنما هي فرائض إلهية، وتكاليف شرعية.. لأن الغاية من خلق الإنسان، وهي عبادته لله، سبحانه وتعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا يَعْبُدُونَ﴾ [الذاريات: ٥٦]، لا تتحقق في صورتها المثلثي، إلا بإقامة الدين، ولا سبيل إلى ذلك إلا بصلاح الدنيا.. فصلاح دنيا الإنسان واجب ديني، يتوقف عليه تحقيق واجب إقامة الدين، الذي هو الهدف من خلق الإنسان، وخلافته عن الله.. وبعبارة الإمام الغزالى (١١١١ هـ / ٥٠٥ مـ - ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨ مـ): «فَإِنْ نَظَامُ الدِّينِ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِنَظَامِ الدِّينِ إِلَّا بِنَظَامِ الدِّينِ، فَنَظَامُ الدِّينِ بِالْمَعْرِفَةِ وَالْعِبَادَةِ، لَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِمَا إِلَّا بِصَحةِ الْبَدْنِ، وَبِقَاءِ الْحَيَاةِ، وَسَلَامَةِ قَدْرِ الْحَاجَاتِ، مِنَ الْكَسْوَةِ وَالْمَسْكِنِ وَالْأَقْوَاتِ وَالْأَمْنِ.. فَلَا يَنْتَظِمُ الدِّينُ إِلَّا بِتَحْقِيقِ الْأَمْنِ عَلَى هَذِهِ الْمَهَمَّاتِ الضرُورِيَّةِ.. إِلَّا، فَمَنْ كَانَ جَمِيعَ أَوْقَاتِهِ مُسْتَغْرِفًا بِحَرَاسَةِ نَفْسِهِ مِنْ سَيِّوفِ الظُّلْمَةِ وَطَلْبِ قُوَّتِهِ مِنْ وَجُوهِ الْغَلْبَةِ، مَتَى يَتَفَرَّغُ لِلْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَهُمَا وَسِيلَتَاهُ إِلَى سَعَادَةِ الْآخِرَةِ؟.. فَإِذَنْ بَانَ أَنَّ نَظَامَ الدِّينِ أَعْنَى مَقَادِيرَ الْحَاجَةِ، شَرْطَ نَظَامِ الدِّينِ..﴾<sup>(٢)</sup>

(١) ابن حزم: (كتاب المحلي) ج ٦ ص ٥٩. طبعة القاهرة- التبرية.

(٢) (الاقتصاد في الاعتقاد) ص ١٣٥ طبعة القاهرة- ضمن مجموعة- مكتبة صبيح- بدون تاريخ.

وإذا كان القرآن الكريم يحدد نطاق الإنفاق عندما يقول: ﴿ وَيُسْأَلُونَكَ مَاذَا يُفْقِدُونَ قُلِ الْعَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَفَكِّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٩] .. فإن الرسول الكريم ﷺ، هو القائل: «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له.. قال (الراوى: الصحابي أبو سعيد الخدري، رضي الله عنه) فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منها في فضل <sup>(١)</sup> .. وهو القائل في التكافل - المحقق للتوازن - العدل - كمعيار للدخول أو الخروج في ذمة الله ورسوله: «من احتكر طعاماً أربعين ليلة فقد بريء من الله تعالى وبريء الله تعالى منه، وأيما أهل عرصه <sup>(٢)</sup> أصبح فيهم أمرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تعالى» <sup>(٣)</sup> .. وعلى هذا الدرب سارت تطبيقات الحضارة الإسلامية.. فوجدنا الراشد الثاني عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يقسم: «والذى نفسي بيده! ما من أحد إلا له في هذا المال حق، أعطيه أو منعه، وما أحد أحقر به من أحد، وما أنا فيه إلا كأحدهم .. فالرجل وبلاه .. والرجل وقدمه .. والرجل وغناه .. والرجل وحاجته .. هو مالهم يأخذونه. ليس هو لعمر ولا لآل عمر» <sup>(٤)</sup>، ووجدنا الراشد الرابع على بن أبي طالب، كرم الله وجهه، يقول: «إن الله فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاء فقير إلا بما متع به غنى! .. إن الغنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة .. وإن المقل غريب في بلاده! .. أنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، لا فضل فيه لأحد على أحد!» <sup>(٥)</sup> .. ووجدنا الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، الذي أعاد إقامة ميزان العدل، بعد أن اختل - يعلن في الناس أن «المال تهر أعظم .. والناس شُرُّبُهم» <sup>(٦)</sup> في سواء! <sup>(٧)</sup>.

(١) رواه مسلم وأبو داود والإمام أحمد.

(٢) العرصة: المحلة والناحية والحي.

(٣) رواه الإمام أحمد.

(٤) (طبقات ابن سعد) ج ٣ ص ١ ص ٢١٥، ٢١٦، ٢١٩ طبعة القاهرة، دار التحرير.

(٥) «نهج البلاغة» ص ٢٠٨ طبعة القاهرة - دار الشعب و(شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد) ج ٧ ص ٣٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م).

(٦) الشرب: النصيب، ولاء.

(٧) الاصفهاني: (كتاب الأغاني) ج ٩ ص ٣٢٧٥ طبعة القاهرة - دار الشعب.

فالعدل فريضة.. وليس مجرد حق من الحقوق.. وفي سبيلها يجب الجهاد، حتى النصر أو الشهادة.. وفي ذلك يقول ابن حزم الاندلسي (٢٨٤ هـ / ٩٩٤ م - ٦٤٠ م): «وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تقم الزكوات بهم، ولا فيسائر أموال المسلمين بهم، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لابد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، ويمسكن يكفهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة.. ولا يحل لسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاماً فيه فضل عن صاحبه لسلم أو لذمي.. وله أن يقاتل عن ذلك، فإن قُتل فعلى قاتله القوَّة، وإن قُتل المانع فإلى لعنة الله؛ لأنَّه منع حقاً، وهو طائفَة باغية. قال تعالى: ﴿إِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأَخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِئَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]. ومانع الحق باع على أخيه الذي له الحق.. وبهذا قاتل أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، مانع الزكاة»<sup>(١)</sup>.

إنها فلسفة متميزة، للإسلام وحضارته، في هذا الميدان.. فالامر ليس مجرد «حقوق» للإنسان.. وإنما هي فرائض إلهية، وتکاليف شرعية.. لأن الغاية من خلق الإنسان، وهي عبادته لله، سبحانه وتعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا يَعْبُدُونَ﴾ [الذاريات: ٥٦]، لا تتحقق في صورتها المثلثي، إلا بإقامة الدين، ولا سبيل إلى ذلك إلا بصلاح الدنيا.. فصلاح دنيا الإنسان واجب ديني، يتوقف عليه تحقيق واجب إقامة الدين، الذي هو الهدف من خلق الإنسان، وخلافته عن الله.. وبعبارة الإمام الغزالى (٤٥٠ هـ / ١١١١ م - ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨ م): «إِنْ نَظَامَ الدِّينِ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِنَظَامِ الدِّينِ (١)». فنظام الدين، بالمعرفة والعبادة، لا يتوصَّل إليهما إلا بصحَّة البدن، وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات، من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن.. فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية.. وإنما، فمن كان جميع أوقاته مستغرقاً بحراسة نفسه من سيوف الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم والعمل، وهو ما وسلياته إلى سعادة الآخرة؟.. فإذاً بان أن نظام الدنيا أعنى مقادير الحاجة، شرط لنظام الدين»<sup>(٢)</sup>.

(١) ابن حزم: (كتاب المحلي) ج ٦ ص ١٥٩. طبعة القاهرة - المغيرية.

(٢) (الاقتصاد في الاعتقاد) ص ٣٥ طبعة القاهرة - ضمن مجموعة - مكتبة صبيح - بدون تاريخ.

فكل مقومات صلاح دنيا الإنسان - المعتبر عنها بحقوق الإنسان - هي - بنظر الإسلام - فرائض وضرورات، وليس مجرد «حقوق» يجوز التنازل عنها، حتى لو كان هذا التنازل طواعية واختياراً.. وسبحان الله العظيم الذي علمتنا أن عبادتنا إيه إنما هي الشكر على ما أفاله علينا من مقومات الأمان - المادي والمعنوي - في هذه الحياة.. ﴿فَلَيُبْدِلُوا رَبُّهُمَا الْبَيْتَ﴾ (٢) الَّذِي أَطْعَمُهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خُوفٍ [قرىش: ٤، ٣].

### ومطلق الإنسان.. وليس امتيازاً لإنسان على إنسان

وإذا كانت هذه الإشارات كافية في تقرير حقيقة تميز فلسفة الإسلام وحضارته في قضية «الحقوق».. حقوق الإنسان.. فإن للإسلام وحضارته تميزاً آخر في «إنسان» هذه الحقوق!..

فتطبيقات الحضارة الغربية في ميدان حقوق الإنسان شاهدة على أن الإنسان الذي استحق أن تكفل له هذه الحقوق إنما هو الإنسان الأبيض قبل سواه وأكثر من سواه، وفي أحيان كثيرة دون سواه!؟..

فإنسان الحقبة اليونانية، صاحب الحقوق، كان القلة الحرية - السادة - المستغله بالعمل الذهني.. وإنسان الغرب الحديث والمعاصر، صاحب الحقوق، كاد أن يكون الإنسان الغربي دون سواه..

وإذا كان الواقع الصارخ من حولنا يغنى عن ضرب الأمثل.. فإننا نتخير مثالين شاهدين على هذا التمييز.

● لقد عشنا حيناً من الدهر - وكثمرة من ثمرات الغفلة والغزو الفكري - نلقن أبناءنا في المدارس والجامعات، أن من أسباب نهضتنا وثوراتنا الحديثة ما أشاعتة مبادئ الرئيس الأمريكي ويلسون Wilson (توماس وودرو) (١٨٥٦م - ١٩٢٤م) - الذي حكم الولايات المتحدة الأمريكية ما بين سنة ١٩١٣م وسنة ١٩٢١م - ما أشاعتة مبادئ الأربع عشر من انتعاش لحقوق الإنسان، وخاصة في مجال حقه في «تقرير المصير» عقب الحرب الاستعمارية العالمية الأولى..

لكننا عندما نتأمل هذه المبادئ، لا يصعب علينا أن نكتشف فيها عنصرية الرجل الأبيض وتمييزه بين أبناء حضارته الغربية وغيرهم في «حق تقرير المصير»!..

(أ) فهذه المبادئ، التي خدعونا فقالوا إنها إعلان لحق الشعوب - كل الشعوب - في تقرير المصير. كانت - في حقيقتها - مبادئ التقنيين لزحف القوى الغربية على مقدرات الشعوب الضعيفة.. وذلك عندما يدعو المبدأ الثالث منها إلى «إزالة الحاجز الاقتصادية بين الشعوب بقدر الإمكان».. في ظروف انعدم فيها تكافؤ الفرص ومقومات المنافسة الاقتصادية المتكافئة بين شعوب أمتنا - والأمم المتأثرة - وبين شعوب الحضارة الغربية في ذلك التاريخ..

(ب) وهي مبادئ التمييز العنصري بين الشعوب في «حق تقرير المصير»، عندما تذكر هذا الحق صراحة وتعرف به بالنسبة للشعوب الأوروبية البيضاء، فينصل المبدأ التاسع على «تعديل حدود إيطاليا بما يتفق مع توزيع القوميات الإيطالية».. وينصل المبدأ العاشر على «تقسيم النمسا والجر تقسمياً بما يتفق مع توزيع قوميات الإمبراطورية».. وينصل المبدأ الحادي عشر على «تعديل الحدود في شبه جزيرة البلقان بما يتفق مع الأوضاع التاريخية وتوزيع القوميات».. ومكوناتها القومية، وأوضاعها التاريخية..

فإذا ما جاءت هذه المبادئ إلى الملوكين، وإلى أوطان شعوب الأمة الإسلامية على وجه الخصوص، اختفى منها تعبير «تقرير المصير»؟!.. ورأينا المبدأ الثاني عشر يقرر تصفية الخلافة والسلطنة العثمانية، دون أن يذكر لشعوب هذه الخلافة أى حق في تقرير المصير.. فينصل هذا «المبدأ» على «قصر حكم الأتراك على رعايا جنسهم، وتقرير حرية الملاحة في مضيق الدردنيل»؟!.. وذلك لأن إعلان هذه «المبادئ» قد تم في ذات الوقت الذي كان فيه الغرب يمهد الطريق لتقسيم تركية «دولة الرجل المريض» بين قواه الاستعمارية.. فكان أن اعترفت هذه «المبادئ» للرجل الأبيض - كشعوب أوروبية - بحقها في تقرير مصيرها بنفسها.. واعترفت كذلك للرجل الأبيض - كمستعمر غربي - «بحقه» في تقرير مصائر شعوبنا الإسلامية نحن، رغمًا عنا، وفي غيبة منا؟!.. فقصروا حكم الأتراك على جنسهم التركي.. واقتسموا المشرق العربي وفق معااهدة «سيكس- بيكيو» السرية، التي عقدوها سنة ١٩١٦م.. وقررت الحركة الصهيونية - التي هي نبت

غربي، وشريك في المشروع الغربي - مصير فلسطين، من خارجها، ورغمًا عن شعبها، وذلك وفق وعد بلفور Balfour (1848م - 1920م) الذي أُعلن في 2 نوفمبر سنة 1917م.. والذى وافق عليه الرئيس الأمريكي - صاحب «المبادئ» - ويلسون، قبل إعلانه؟!.. ثم وافقت عليه فرنسا وإيطاليا.. ثم وضعوه في الممارسة والتطبيق بواسطة الانتداب البريطاني، الذي باركته «عصبة الأمم»، التي أقاموها سنة 1920م!.. وهي العصبة التي قالوا إن ميثاقها قد مثل أول تquinin معاصر لحقوق الإنسان؟!..

هذا هو موقف الغرب من مبدأ «حق الشعوب في تقرير مصيرها»، وتلك هي المكاييل المختلفة - بل والمتناقضة والمتعارضة - التي يكيل بها في هذا الموضوع.. وهو لا يزال على موقفه هذا حتى الآن.. فكل صهيوني، من أي جنس ووطن ولغة وقومية، من «حقه»، وفق القانون الصهيوني، الذي تنفذه حرب الغرب، أن يقرر الاستيطان بفلسطين، فيقرر مصيرها ككيان للاستيطان الصهيوني.. في الوقت الذي يقف فيه الغرب، حتى اليوم، موقف العداء من حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير؟!..

\* \* \*

● وفي الوقت الذي كان فيه الغرب يقيم الدنيا، بل ويشن الحروب، بدعوى «تحرير الرقيق» - حتى ولو كان هذا الرقيق خادمًا في منزل - كان يسترق - بفزوته الاستعمارية الحديثة - الأمم والشعوب والقارات.. يسترق إنسانها، ويدمر ويمسح وينسخ مواريئها وهويتها الحضارية.. بل ويقتل بعضها اقتلاعاً ليحل محلها أبناءه البيض بالاستعمار الاستيطاني!..

حدث ذلك.. ولا يزال يحدث، في الوقت الذي اتّخذ فيه الإسلام، منذ نزول قرآنٍ وبعث رسوله ﷺ، وقامت دولته، وتبloorت حضارته.. اتّخذ فيه الموقف الواضع والحااسم الرافض للتمييز بين بني الإنسان..

فالإسلام يقرر أن التكريم الإلهي إنما هو للإنسان، مطلق الإنسان.. أي لبني آدم أجمعين، على اختلاف الألوان والعقائد والحضارات والشعوب والقبائل والأعراق «ولقد كرمَنَا بَنِي آدَمْ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيَّابَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ

كثيرٌ مِّنْ خَلْقَنَا تَفْضِيلًا ﴿الإِسْرَاءٌ: ٧٠﴾ .. وبعد ذلك التكريم العام تكون التقوى معيار التفاضل بين المكرمين ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذِكْرٍ وَأَشْتَى وَجَعَلْنَاكُمْ شَعُوبًا وَقَبَائلٍ لَعَارِفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَمْ كُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

والحرية، التى هي فريضة إلهية وتكليف شرعى، ليست امتيازاً خاصاً، بل هي لكل الناس.. والراشد الثاني عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، عندما قال كلمته الحكيمة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!».. قالها ومقام الحديث عن إنسان نصراني - قبطي - وإبان الفتح الذى يقتضى، ضمن ما يقتضى، تمييزاً - لداعى الامن - بين الفاتحين وبين أهل البلاد المفتوحة، الذين لم يندموا بعد فى أمة الفتاح، بالمعنى القومى فضلاً عن المعنى الدينى ..

والعدل، الذى أراده الله فريضة إنسانية، وليس مجرد «حق» من حقوق الإنسان.. قد جعل الإسلام لطلق الإنسان.. مسلماً كان أو غير مسلم.. بل صديقاً كان أو عدواً! ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوْنُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءِ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلَا تَعْدِلُوْا أَعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَأَتَقُوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

وهكذا تميز الإسلام فى «فلسفة» الحقوق المقررة للإنسان ..

وهكذا تميز، أيضاً فى «آفاق» الإنسانية، التى جعل لها هذه «الحقوق» فرائض إلهية وتكاليف شرعية، تأثم جميعاً إذا هى نكصت أو تخاذلت عن الجهد فى سبيل تحقيق هذه الواجبات فى كل مناحى حياة الإنسان.. كل إنسان.. والله أعلم.

\* \* \*

## الفصل الثاني

### فى الحرية

الحرية: هي المقابل المناقض للعبودية.. والحر: ضد العبد والرقيق.. وتحرير الرقبة: عتقها من الرق وال العبودية.. فالحرية هي رخصة الإباحة التي تمكن الإنسان من الفعل أو الترك، المعبّر عن إرادته، التي هي شوق إلى الفعل أو الترك، في أي ميدان من ميادين الفعل، وبأى لون من ألوان التعبير الحر..

وفي المصطلح القرآني مقابلة بين الحر والعبد «**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِيِّ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى**» [البقرة: ١٧٨].

ومن المؤثرات الإسلامية كلمات الفاروق عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!»..

وكما أن الحر هو الخالي من القيود المادية والقانونية التي تحد من حرريته، فهو أيضاً المتحرر من سلطان الصفات والعادات الذميمة؛ لأنها تستعبد صاحبها.. وفي القرآن الكريم: «**رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحْرَرًا**» [آل عمران: ٣٥].. أي حرًا معتقدًا من أمر الدنيا والحرص على شهواتها.. وفي الحديث النبوى الشريف: «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار..<sup>(١)</sup> ذلك لأن الحر يعيش عبد لما هو حر يعيش عليه.. وفي ذلك يقول الشاعر:

ورِقْ ذُوِّي الأطْمَاعِ رِقْ مُخَلَّدٌ

\* \* \*

(١) رواه البخارى وأبي ماجة.

ولما كان الإسلام، جوهر رسالته، هو إحياء للإنسان، يحرر ملكاته وطاقاته من استعباد الطواغيت، فيجعل هذه الملائكة والطاقات خالصة لله، سبحانه وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِبُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ إِذَا دَعَاكُمْ لَا يُحِبِّيكُم﴾ [الأنفال: ٢٤]. كانت رسالته، في العقيدة والشريعة، تحريراً للإنسان، وذلك حتى تتحرر فيه هذه الملائكة ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التُّورَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَحْلِلُ لَهُمُ الطَّيَّابَاتِ وَيَحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَاثَ وَيَنْهَاهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].. فجميع أحكام شريعته تحرير، حتى عندما تحرم الخباث: لأن اجتناب هذه الخباث تحرير للإنسان من العبودية لها!.. ومن ثم فكل الإسلام إحياء بالحرية، يضع عن المؤمنين به القيود والأغلال - المادية والقانونية والخُلُقية - وينهى ويزكي الملائكة والطاقات الخيرة؛ لتعالب وتغلب على القيود والأغلال، فتصبح قمة العبودية لله وحده هي ذروة الحرية والتحرير للإنسان!..

ولأن هذا هو جوهر ومقام الحرية في رسالة الإسلام، فلقد لحظ المفسرون للقرآن الكريم سر التشريع الذي جعل كفارة القتل الخطأ تحرير رقبة من رق العبودية ﴿وَمِنْ قَلْ مُؤْمِنًا حَطَّنَا فَتَحَرَّرَ رَقْبَةً مُؤْمِنَةً﴾ [النساء: ٩٢]. ذلك لأن الرق موت، والحرية حياة، فلما كان القاتل قد أخرج بالقتل - نفسها من عدد الأحياء إلى عدد الأموات، فإن كفارة هذا الذنب - العادلة له - هي تحرير رقبة، بإخراج صاحبها من عدد الأموات - بالرق - إلى عدد الأحياء - بالحرية والتحرير!..

ولما كان «الإسلام دين الجماعة»، الذي لا تكتمل إقامته إذا وقف عالم الإيمان به عند حدود الفرد المتعزل، حتى ولو استخلص كل نفسه - بالرهبة - للدين.. بل لا بد لإقامة فرائضه وواجباته وشرائعه من أمة ووطن، ومجتمع، ودولة، وعمراً؛ لأن تكاليفه وفرائضه الاجتماعية - الكفائة - موجهة إلى الجماعة، ولا تقوم ولا تُقام إلا بالجماعة، بل وحتى فرائضه الفردية أغلبها جماعي الإقامة والأداء.. وأداؤها في جماعة أركي وأكثر ثواباً.. لأن هذا هو مكان الجماعة والجماعية في إقامة دين الإسلام وتحقيق شريعته، لم يقف الإسلام عند تحرير ذات الفرد وطاقاته وملكته.. فلم يعرف الرهبانية

التي تقف عند تحرير الذات الفردية، وإنما جعل رهيبانيته الجهاد الذي يحرر الأمم والشعوب والأوطان، فقال رسوله الكريم ﷺ: «إني لم أومر بالرهبانية»<sup>(١)</sup> و«إن الرهبانية لم تكتب علينا»<sup>(٢)</sup> و«عليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام»<sup>(٣)</sup> فكانت فتوحات الإسلام حروب تحرير للأمم والشعوب من عبودية الاستبداد الخارجي الذي فرضه على هذه الشعوب، يومئذ استعمار الفرس والروم، ومن الاستعباد الروحي والاجتماعي الذي فرضته على هذه الشعوب نظم الكهانة الدينية، والجور الظيفي، والاستبداد السياسي - في الكسرورية الفارسية والقيصرية البيزنطية - وعن جوهر هذه الرسالة التحريرية عبر الصحابي «ربعي بن عامر التميمي»، عندما سأله «رستم» قائد الفرس: «ما الذي جاء بكم؟!»..

.. فقال:

- «إن الله أبعتنا، وجاء بنا للخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»..  
فهي رسالة تحرير.. وتحرير من شاء التحرر، بالحرية والاختيار!.. تحرير من عبادة العباد.. ومن ضيق الدنيا.. ومن جمود كهانة الأديان..  
فالحرية والتحرر هي جوهر رسالة الإسلام.. ولأن إقامة الإسلام لا تكتمل إلا في أمة، كان اختصاص رسوله ﷺ، وشرعيته بالجهاد لتحرير الأمم والشعوب، وبالدولة لحراسة الدين المحرر لهذه الأمم والشعوب..  
ولأن شعوب الشرق، إبان ظهور الإسلام، قد أدركت هذه الحقيقة من حقائقه، فلقد انخرطت في موكب فتوحاته ورعاية دولته ولا يدخل الإيمان بعقيدته بعد في قلوب هذه الشعوب!..

\* \* \*

---

(١) رواه الدارمي.

(٢) رواه الإمام أحمد.

(٣) رواه الإمام أحمد.

وإذا كانت الشرائع السابقة على الإسلام قد تميزت بالمحليه والمرحلية والاختصاص بقوم من الأقوام.. فلقد كانت عالمية الشريعة الإسلامية تحريراً للمؤمنين بها من قيد المحليه وعصبية القوميه، وظفت المحليه والأقوام والشعوب والقبائل كلبنات في الامة المفتوحة آفاقها دائمآ وأبداً لكل من يخلص العبودية لله.. فكانت عالمية الإسلام تحريراً من ضيق أفق العصبية الجاهليه، وكان استيعاب الإسلام لمواريث النبوات والرسالات السابقة، وإضافته التي اكتمل بها دين الله الواحد - أي التصديق لما بين يديه، والهيمنة على ما بين يديه - كان ذلك تحريراً من التعصب للشرائع المحليه، وانفتاحاً لأبواب الحرية في شريعة التي استوعبت الشرائع، وأضافت إليها، ومن ثم ألغت عنها الذين آمنوا بها.. وبعبارة «حاطب بن أبي بلتعة»<sup>١</sup> ق. ٣٥ - هـ ٢٠ - م ٥٨٦ - حامل كتاب رسول الله ﷺ إلى «المقوoses» - عظيم القبط: «إن لك دينا لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافي الله به فقد ما سواه»!..

\* \* \*

وكما جاء الإسلام ليضع عن الإنسان إصر القيود التي صنعتها الاستبداد، وأغلال العقائد الباطلة والشرائع المحرفة.. فلقد جاء ليفتح أبواب حرية الفكر والنظر أمام العقل الإنساني لينظر ويتدبر ويتفكر في ملكوت السموات والأرض، وفي تاريخ الأولين والآخرين.. في الماضي والحاضر والمستقبل.. في كيف بدأ الخلق، ولماذا كان الخلق، وإلى أين المسيرة والمصير؟؟.. فكان حديث القرآن الكريم عن التعقل والتدبر والتفكير والذكرا والحكمة والاعتبار.. بل واستنفاره هذه الملائكة الإنسانية لتعمل بكل ما ولهبها الله من طاقات في النظر لاكتشاف ما أودع الله في عالم الشهادة من آيات وسفن وأسرار.. وبعد أن كان سبيل الإيمان - في طور الطفولة الإنسانية - هو إدهاش العقل بالعجزات المادية، إدهاشاً يشل طاقاته وقدراته على التفكير!.. غداً النظر والتعقل السبيل للإيمان المؤسس على تبيان ما في المخلوقات من حقائق وقوانين وآيات.. «سُرِّيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» [فصلت: ٥٣]. ولذلك رأينا الحديث المتكرر، في القرآن الكريم، الذي يستhort الإنسان على تنمية ملائكة وطاقات النظر والتفكير، لتزداد مساحة الحرية الإنسانية - بالعلم والمعرفة - إزاء ما في الكون من قيود تتمثل في المجهول..

فالحديث عن التعقل يرد في القرآن - بصرير المصطلح - في تسعه وأربعين موضعًا.. وعن القلب - الذي هو أداة الفقه والعقل - في أكثر من مائة موضع .. وعن اللب - الذي هو جوهر العقل - في ستة عشر موضعًا .. وعن النهي - بمعنى العقل - في موضعين .. وعن الفكر والتفكير في ثمانية عشر موضعًا .. وعن الفقه - الذي هو تجاوز علم المشاهد إلى علم الغيب - في عشرين موضعًا .. وعن التدبر - الذي هو النظر في العواقب والمستقبلات - في أربعة مواضع .. وعن الاعتبار في سبعة مواضع .. وعن الحكمة - التي هي الصواب والإصابة بواسطة العقل - في تسعه عشر موضعًا .. وانطلاقاً من هذا الرصيد، غير المسبوق في شريعة من الشرائع السابقة على شريعة الإسلام، رصيد التحرير للملائكة التعقل والتدبر والتفكير لدى الإنسان؛ ليتحرر من خوف المجهول، ويمتلك مفاتيح القوى التي سخرها الله له في استعمار الأرض.. انطلاقاً من هذا الرصيد التحريري. قال جمهور من فلاسفة الإسلام: إن أول واجب على الإنسان المكلف هو «النظر»؛ لأن النظر الحر - هو المحرر للملائكة الإنسان - وهو السبيل إلى الإيمان الديني، الذي تبلغ به هذه الملائكة قمة التحرر من استعباد الطواغيت!..

\* \* \*

وكما تجاوز الإسلام تحرير طاقات الإنسان إلى تحرير الشعوب من الاستعباد.. فلقد تجاوز تحرير الذين كانوا يدعون «أحراراً» إلى الدعوة لتحرير «الأرقاء»..  
لقد ظهر الإسلام ونظام الرق - في شبه الجزيرة العربية أو فيما وراءها - نظام عام، وبالغ القسوة، ويمثل ركيزة من ركائز النظمتين الاقتصادية والاجتماعي لعالم ذلك التاريخ.. وإذا نظرنا إلى المحيط الذي ظهر فيه الإسلام وجدنا الروافد المتعددة دائمة الإمداد لنهر الرقيق الراخرا بالجديد من الأرقاء.. فالحروب العدوانية.. والغارات الدائمة.. والفقر المدقع.. والعجز عن سداد الدين.. والحرابة وقطع الطريق.. وأسواق النخاسة التي تعج بالصغرى المجلوبين - فتياناً وفتيات - كانت من المعالم الأساسية لكل المجتمعات، حتى لا نغالى إذا قلنا: إن الرقيق كان «العملة الدولية» لاقتصاد ذلك التاريخ!  
فلما جاء الإسلام، وقامت دولته بالمدينة، حرم وألغى كل المنابع والروافد التي تمد نهر الرقيق بالجديد والمزيد.. ووسع مصبات ذلك النهر، عندما حبب إلى الناس عنق

الأرقاء وتحريرهم، بل وجعله مصرفًا من مصارف الأموال الإسلامية العامة، وصدقات المسلمين.. وعندما جعل العديد من كفارات العديد من الذنوب هي تحرير الأرقاء.. وعندما سن شرائع المساواة بين الرقيق ومالكه، في المطعم والمشرب والملابس، ودعا إلى حسن معاملته، والتخفيف عنه في الأعمال، حتى لقد أصبح الاسترقاق - في ظل هذه التشريعات - عبئًا اقتصاديًّا يزهد فيه الراغبون في الثراء، بعد أن كان مورداً من موارد الاستغلال!..

فلم يكن موقف الإسلام من «الحرية»، وعداؤه «للعبودية».. إذا نظرنا إلى موقفه من نظام الرق - مجرد موقف «فكري.. نظري.. أخلاقي»، وإنما تجسد على أرض الواقع تجربة إصلاحية شاملة غيرت المجتمع الذي ظهر فيه تغييرًا جذرًا.. بل إنه لم يقف بالرقيق عند حد العتق والتحرير، وإنما فتح أمامهم كل أبواب الارتقاء في السلم الاجتماعي، وفق المعايير التي اعتمدها للارتقاء الاجتماعي: القوى، والبلاد في إقامة الدين والدولة والمجتمع الجديد.. حتى رأينا «بلاً الحبشي» - الذي أعتقه أبو بكر الصديق. يقول عنه عمر بن الخطاب - وهو من هو شرفًا وحسبًا ونسبة: «سيدينا - (أى أبو بكر) - أعتق سيدينا - (أى بلاً) - !!!..

ولقد وقف التشريع الإسلامي بالاسترقاق عند أسري الحرب المشروعة وحدها، وذلك ليتبادلهم مع أسري المسلمين.. بل وشرع لهذه الحالات، المحدودة العدد، «المن» و«الغداء» ﴿فِإِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرِبُ الرِّقَابَ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشَدُّوْا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنْ بَعْدُ إِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْ زَارَهَا﴾ [محمد: ٤] ..

ذلك هو إنجاز الإسلام في واقع التحرير للرقيق.. وهو إنجاز لا تحسب عليه «الردة» التي حدثت عندما استشرى الاسترقاق بعد اتساع الدولة، ودخول شعوب كان الرق فيها نظامًا اقتصاديًّا واجتماعيًّا معقدًا ومركبيًّا.. والدولة الإسلامية ليست على حالها في ظل منهاج النبوة والراشدين!..

\* \* \*

ولأن هذا هو مقام الحرية في الإسلام، فلقد كان مبحثها هو أول الباحث التي بدأت بها الفلسفة الإسلامية في تاريخنا الحضاري، بعد ظهور الإسلام.. ولقد دلت

ملابسات هذه النشأة على ارتباط «الحرية» بـ«المسئولية» ارتباطاً عضوياً؛ لأن القضية التي أثارت الجدل فولدت البحث في هذه القضية، هي التغيرات التي أحدثتها الدولة الأموية في نظام الحكم الإسلامي، والصراعات التي حدثت بين المسلمين حول هذه التغيرات.. وهل القائمون بها مسؤولون عنها؟.. يحاسبون عليها؟.. فهم أحرار مختارون؟؟ أم أنهم غير مسؤولين؟.. كلياً؟.. أو جزئياً؟.. ولا حساب عليهم؟.. لأنهم مسيرون مجبرون؟؟.. فنشأ مبحث الحرية - الذي عبر عنه أحياناً بـ«الكلام في القدر».. مرتبطاً بالمسؤولية.. مسؤولة الإنسان..

ولقد تميزت نظرة الإسلام إلى «الحرية» عن نظارات كثيرة من الفلسفات والأنساق الفكرية الأخرى.. فالحرية في النظرة الإسلامية، ضرورة من الضرورات الإنسانية، وفرضية إلهية وتکاليف شرعى واجب.. وليس مجرد «حق» من الحقوق الإنسانية، يجوز لصاحبها أن يتنازل عنها إن هو أراد!.. فالرضا بالعبودية هو امتحان لمن كرمه خالقه، واستخلفه في حمل أمانة استعمار الأرض، ورفع مقامه حتى على الملائكة المقربين!.. وفيه ظلم للنفس، سيحاسب عليه ذلك الذي يرضى لنفسه الرق والاستعباد!.

والحرية في الإسلام هي ضرورة إنسانية، لطلق الإنسان، وليس للإنسان المسلم وحده.. وعمر بن الخطاب عندما استنكر استعباد الناس - «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمها لهم أحراراً؟!.. كان «الناس» الذين يتحدث عنهم غير مسلمين..

وإذا كان الدين والتدين هو أغلى وأول ما يميز الإنسان، فإن تقرير الإسلام لحرية الضمير في الاعتقاد الديني لشاهد على تقدير حرية الإنسان في كل الميادين.. فهو حر حتى في أن يكفر، إذا كان الكفر هو خياره و اختياره، طالما أنه لا ينشر كفره بين الناس فيعيتدى على حرية تفكيرهم في الاعتقاد الديني الذي جعلوه مقوماً من مقومات الاجتماع الإنساني **﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾** [البقرة: ٢٥٦].. **﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على يقنةٍ من ربِّي وَأَتَانِي رحمةٌ مِّنْ عَنْدِهِ فَعَمِّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْذِرْتُكُمُوهَا وَأَتَمْ لَهَا كَارْهُونَ﴾** [هود: ٢٨].. **﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَأَمِنَّ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَلَمْ تُكْرِهْ**

**الناس حتى يكونوا مؤمنين** [يونس: ٩٩]. لقد أراد الله للناس الهدى والإيمان.. لكنه جعل لهم، مع هذه الإرادة الإلهية، الحرية والتخدير والتمكين.. فكان انتصار الإسلام للحرية الإنسانية في كل الميادين..

كذلك تميز الإسلام بمذهبه في «نطاق» الحرية الإنسانية و«آفاقها» و«حدودها»، تبعاً لتميز فلسفته في مكانة الإنسان في هذا الوجود..

فإن الإنسان خليفة عن الله، سبحانه وتعالى، في عمارة الوجود.. ومن ثم فإن حريته هي حرية الخليفة، وليس حرية سيد هذا الوجود.. إنه حر، في حدود إمكاناته المخلوقة له - والتي لم يخلقها هو! .. وهو حر، في إطار الملابسات والعوامل الموضوعية الخارجية، التي ليست من صنعه، والتي قد يستعصى بعضها على تعديله وتحويره وتغييره! .. هو حر، في إطار أشواقه ورغباته وميوله، التي قد لا تكون دائمًا وأبدًا ثمرات حرة وخلصة لحريته وإرادته الخالصة، وإنما قد تكون، أحياناً، ثمرات لحيط لم يصنعه هو، ولوروث ما كان له إلا أن يتلقاه! ..

ثم إن «ال الخليفة والوكيل والنائب الحر»، الذي يجب أن تظل حريته في إطار عقد وعهد الاستخلاف الإلهي له .. والذى تمثل الشريعة الإلهية مواده وبنوده وأطر حاكمة.. فهى عقد وعهد الاستخلاف والتوكيل..

وإذا كان الله، سبحانه وتعالى، قد سخر للإنسان ظواهر الطبيعة وقوتها.. ليتحرر من العبودية لها.. فإنه قد أقام - أو أراد - إخاء بين قوى الإنسان وقوى الطبيعة، لتمتزج حريته بهذا التسخير المتبادل.. فهو آخر للطبيعة، بين قواه وقوها تسخير متبادل، هو أشبه ما يكون بالارتفاع، كل مرافق مسخر للمرفق الآخر، الأمر الذي يجعل الحرية الإنسانية حرية المخلوق.. المسئول .. لا حرية الذي لا يسأل عما يفعل.. الفعال لما يريد<sup>(١)</sup> ..

\* \* \*

---

(١) انظر: د. محمد عمارة (الإسلام وفلسفة الحكم) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩ م. و(العتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م.

## الفصل الثالث

### في حرية الضمير

من الظواهر التي شاعت في حياتنا الفكرية - في العقود الأخيرة - ظاهرة الضيق بالرأي المخالف .. وحكم غير المختصين في أعمال فكرية لا علاقة لشخصهم العلمي بها، وقياسها بغير المعايير التي يجب أن تقادس بها؟! .. والذهب في «ضيق الصدر الفكري» إلى حد الحكم بالكفر على هؤلاء المخالفين؟! ..

ويخطئ من يظن أن هذا السلوك الرديء وقف على بعض «الإسلاميين» الذين يكفرون نفراً من «العلمانيين» .. ذلك أن سلاح التكفير هذا قد أصبح مشهراً ضد العديد من قصائل الإسلاميين، توجهه ضدتهم «دول» و«مؤسسات»، وليس مجرد كتاب أو مفكرين؟! .. الأمر الذي يدعو إلى الاحتكام إلى الإسلام، طلباً لكلمة سواء في هذا الأمر الخطير ..

وإذا كان إسلامنا قد علمنا أن معرفة الحق هي السبيل إلى معرفة أهله، وأن الإسلام هو الحاكم على الرجال، دون أن يكون في تصرفات «الرجال» - إذا تنكبت طريق الحق - ما يعيب الإسلام .. ومن ثم فإن على مختلف الفرقاء: الذين يدافعون عن الإسلام دفاع «الدببة التي قتلت صاحبها» من فرط حبها - غير الواقعى - إيه؟! .. وأيضاً أولئك الذين يتلقفون صنيع هذه «الدببة» لتشويه الدعوة المقدسة والنبيلة من أجل استكمال أسلامة الواقع والقانون في مجتمعات المسلمين .. إن مختلف الفرقاء في هذه القضية مدعوون إلى الاحتكام إلى «الحق»، كما تمثل في أصول الإسلام - قرآن وسنة - وفي فكر أعلامه، وفي تطبيقات هذه الأصول ومتاهج هؤلاء الأعلام .. ومنهم علماء وأعلام الأزهر الشريف، على امتداد تاريخه العريق ..

● فالله، سبحانه وتعالى، يعلمـناـ بـقـرـآنـهـ الـكـرـيمـ تـفـرـدـهـ وـحـدـهـ، وـاـخـتـصـاصـهـ دـوـنـ سـوـاهـ بـالـحـكـمـ عـلـىـ الـعـقـائـدـ وـالـضـمـائـرـ وـالـأـقـيـدةـ وـالـقـلـوبـ؛ لـأـنـهـ وـحـدـهـ صـاحـبـ الـعـلـمـ الـمـحيـطـ بـمـاـ فـيـهـاـ، لـمـ يـعـطـ شـيـئـاـ مـنـ ذـلـكـ لـأـحـدـ سـوـاهـ.. ﴿ يـأـيـهـاـ الـذـيـنـ آـمـنـواـ إـذـاـ ضـرـبـتـمـ فـيـ سـبـيلـ اللـهـ فـتـبـيـنـواـ وـلـاـ تـقـولـواـ مـنـ أـلـقـىـ إـلـيـكـمـ السـلـامـ لـمـ سـتـ مـؤـمـنـاـ تـبـغـونـ عـرـضـ الـحـيـاةـ الـدـنـيـاـ فـعـنـدـ اللـهـ مـعـانـمـ كـثـيرـةـ كـذـلـكـ كـنـتـ مـنـ قـبـلـ فـمـنـ اللـهـ عـلـيـكـمـ فـتـبـيـنـواـ إـنـ اللـهـ كـانـ بـمـاـ تـعـمـلـونـ خـبـيرـاـ﴾ [النساء: ٩٤].

ولقد وقف أئمة تفسير القرآن الكريم وأعلامه أمام هذا التوجيه القرآني والفريضية الإلهية، وقفـةـ ذاتـ دـلـالـةـ، فـقـالـواـ لـنـاـ: إـنـ فـيـ هـذـاـ التـوـجـيـهـ إـلـهـيـ «مـنـ الفـقـهـ بـابـ عـظـيمـ، وـهـوـ أـنـ الـأـحـكـامـ تـنـاطـ بـالـمـلـظـانـ وـالـظـلـوـاهـرـ، لـاـ عـلـىـ الـقـطـعـ وـاـطـلـاعـ السـرـائـرـ.. فـالـلـهـ لـمـ يـجـعـلـ لـعـبـادـهـ غـيـرـ الـحـكـمـ بـالـظـاهـرـ..﴾<sup>(١)</sup>.

فعـلـىـ الـذـيـنـ يـقـلـدـونـ الـكـهـانـةـ الـكـنـسـيـةـ، بـاسـمـ الـإـسـلـامـ، وـأـيـاـ كـانـتـ مـوـاقـعـهـمـ، أـنـ يـتـقـواـ اللـهـ فـيـ الـإـسـلـامــ الـذـيـ لـمـ يـحـفـظـواـ كـتـابـهـ، وـلـمـ يـفـقـهـواـ عـلـومـهـ، وـلـمـ يـكـتـبـواـ فـيـ فـكـرـهـ كـتـابـاـ وـاـحـدـاـ؟ـ!ـ..

وعـلـىـ أـعـدـاءـ الشـرـيـعـةـ، وـأـنـصـارـ «ـالـتـغـرـيبـ»ـ، وـالـمـبـشـرـينـ بـالـتـبـعـيـةـ لـلـحـضـارـةـ الـفـرـبـيـةـ، أـنـ يـعـلـمـواـ أـنـ هـذـهـ «ـالـصـغـائـرـ»ـ لـيـسـتـ مـنـ الـإـسـلـامـ فـيـ شـيـءـ.. وـمـنـ ثـمـ فـلـاـ حـجـةـ فـيـهـاـ عـلـىـ الـإـسـلـامـ؟ـ!ـ..

● وـرـسـولـ الـإـسـلـامـ عـلـيـهـ السـلـامـ، هوـ الـذـيـ نـتـعـلـمـ مـنـ النـهـجـ وـالـقـدـوةـ فـيـ هـذـاـ المـقـامـ.. لـقـدـ جـاءـهـ نـفـرـ مـنـ صـحـابـتـهـ يـحـدـثـونـهـ عـنـ «ـالـوـسـاوـسـ»ـ الـقـىـ جـعـلـتـهـمـ «ـيـشـكـونـ»ـ فـيـ جـوـهـرـ الـدـينـ وـمـحـورـ الـتـدـيـنـ.. فـيـ ذـاتـ اللـهـ؟ـ!ـ.. فـلـمـ يـجـزـعـ رـسـولـ اللـهـ عـلـيـهـ السـلـامـ.. وـلـمـ يـنـهـرـهـمـ.. وـلـمـ يـتـصـيدـ مـوـاقـعـ الـضـعـفـ لـيـوـجـهـ الـاـتـهـامـاتـ.. بلـ وـصـفـ حـالـهـمـ وـقـلـقـهـمـ الـفـكـرـىـ، «ـوـشـكـهـمـ الـمـنـهـجـىـ»ـ الـبـاحـثـ عـنـ سـبـلـ الـيـقـيـنـ بـأـنـهـ «ـصـرـيـحـ الـإـيمـانـ»ـ.. وـمـحـضـ الـإـيمـانـ»ـ وـلـبـهـ وـجـوهـهـ.. فـفـىـ الـحـدـيـثـ الـذـيـ يـرـوـيـهـ أـبـوـ هـرـيـرـةـ، يـقـوـلـ: جـاءـ نـفـرـ مـنـ الصـحـابـةـ إـلـىـ رـسـولـ اللـهـ عـلـيـهـ السـلـامـ، فـقـالـواـ: «ـيـاـ رـسـولـ اللـهـ، إـنـ أـحـدـنـاـ يـحـدـثـ نـفـسـهـ بـالـشـيـءـ ماـ يـحـبـ أـنـ يـتـكـلـمـ بـهـ وـإـنـ لـهـ مـاـ عـلـىـ الـأـرـضـ مـنـ شـيـءـ.. وـإـنـاـ نـجـدـ فـيـ أـنـفـسـنـاـ مـاـ يـتـعـاـظـمـ أـحـدـنـاـ أـنـ يـتـكـلـمـ

(١) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٥ ص ٢٢٩، ٢٤٠ طبعة دار الكتب المصرية.

بـه! فأجابهم الهادى البشير: «وقد وجدتموه؟!.. قالوا: نعم.. فقال: «ذاك صريح الإيمان.. ذاك محضر الإيمان»<sup>(١)</sup>!..

● وإنها لشهيرة وحاسمة قصة ذلك الحديث الذى رواه بطلها أسامة بن زيد، رضى الله عنهمـا، قال: «بعثنا رسول الله ﷺ، فى سرية، فصَبَّحْنَا الحُرُقات - مكان - من جهينة. فأدركـتـ رجلاً، فقال: لا إله إلا الله. فطعنتهـ فوقـ فى نفسـىـ منـ ذلـكـ. فذكرـتهـ للنبي ﷺ، فقال: «أقالـ لا إله إلا الله، وقتـلتـهـ؟!.. قالـ قـلتـ: يا رسولـ اللهـ، إنـماـ قالـ لهاـ خـوفـاـ منـ السـلاحـ. قالـ: أـفـلاـ شـفـقـتـ عـنـ قـلـبـهـ لـتـعـلـمـ أـقـالـهـاـمـ لـاـ؟!.. فـماـ زـالـ يـكـرـرـهـ عـلـىـ حـتـىـ تـعـنـيـتـ أـنـىـ أـسـلـمـ يـوـمـئـ»<sup>(٢)</sup>.

وأمامـ هذاـ النـهجـ النـبوـىـ، والمـوقـفـ الـإـسـلـامـىـ الجـامـعـ يـقـفـ الإـمامـ النـوـوىـ [٦٢١ـ هـ / ٦٧٦ـ هـ / ١٢٢٢ـ مـ]ـ وـهـوـ يـشـرـحـ «صـحـيـحـ مـسـلـمـ»ـ، فـيـقـولـ: «إـنـماـ كـلـفـتـ بـالـعـلـمـ بـالـظـاهـرـ وـمـاـ يـنـطـقـ بـهـ لـلـسـانـ. وـأـمـاـ القـلـبـ فـلـيـسـ لـكـ طـرـيقـ إـلـىـ مـعـرـفـةـ مـاـ فـيـهـ»ـ!

فعلىـ الـذـينـ لـمـ يـفـقـهـواـ نـهـجـ الـإـسـلـامـ فـىـ صـيـانـةـ الـعـقـائـدـ عـنـ عـبـثـ الـأـحـكـامـ وـطـائـشـ الـقـرـاراتـ، أـنـ يـقـوـواـ اللـهـ فـىـ هـذـاـ النـهـجـ الـذـىـ تمـيـزـ بـهـ الـإـسـلـامـ وـامـتـازـ عـلـىـ غـيـرـهـ مـنـ الـدـيـانـاتـ.. وـعـلـىـ الـذـينـ يـكـيـدونـ لـلـإـسـلـامـ وـنـهـجـهـ بـتـصـيـدـ الـعـابـثـ مـنـ الـأـحـكـامـ وـطـائـشـ مـنـ الـقـرـاراتـ، أـنـ يـمـيـزـواـ بـيـنـ هـذـاـ النـهـجـ الرـاقـىـ لـلـإـسـلـامـ الـحـتـيفـ وـبـيـنـ عـبـثـ الـعـابـثـينـ.. فـمـعـرـفـةـ الـحـقـ هـىـ السـبـيلـ إـلـىـ مـعـرـفـةـ أـهـلـهـ - وـلـيـسـ الـعـكـسـ - وـلـيـسـ فـيـ حـكـمـ «الـرـجـالـ»ـ ماـ يـنـهـضـ حـجـةـ عـلـىـ الـإـسـلـامـ؟!

● وهذاـ هوـ حـجـةـ الـإـسـلـامـ أـبـوـ حـامـدـ الغـزـالـىـ [١١١ـ هـ / ٥٠٥ـ مـ / ٤٥٠ـ هـ]ـ يـعـلـمـ الدـنـيـاـ أـنـ هـذـاـ النـهـجـ الـإـسـلـامـىـ لـمـ يـكـنـ مـجـرـدـ «فـكـرـ نـظـرىـ»ـ، وـإـنـماـ كـانـ التـزـامـ حـضـارـةـ وـضـعـهـ أـعـلـامـهـاـ فـىـ «الـمـارـسـةـ وـالـتـطـبـيقـ»ـ، فـيـقـولـ: إـنـهـ «يـنـبـغـىـ الـاحـتـراـزـ مـنـ الـتـكـفـيرـ مـاـ وـجـدـ الـإـنـسـانـ إـلـىـ ذـلـكـ سـبـيـلـاـ، فـإـنـ اـسـتـبـاحـ الـدـمـاءـ وـالـأـمـوـالـ مـنـ الـمـصـلـيـنـ إـلـىـ الـقـبـلـةـ، الـمـصـرـحـيـنـ بـقـوـلـ: لـاـ إـلـهـ إـلـاـ اللـهـ مـحـمـدـ رـسـوـلـ اللـهـ، خـطاـ. وـالـخـطـأـ فـيـ تـرـكـ الـكـافـرـ أـهـونـ مـنـ الـخـطـأـ فـيـ سـفـكـ مـحـجـمـةـ مـنـ دـمـ مـسـلـمـ»<sup>(٣)</sup>ـ!

(١) حـدـيـثـ رـوـاهـمـاـ مـسـلـمـ وـإـلـمـامـ أـحـمدـ.

(٢) رـوـاهـ مـسـلـمـ وـأـبـوـ دـاـوـدـ وـابـنـ مـاجـهـ وـإـلـمـامـ أـحـمدـ.

(٣) (الـإـقـتـصـادـ فـيـ الـاعـقـادـ) صـ ١٤٢ـ، طـبـعـةـ الـقـاهـرـةـ، مـكـتبـةـ صـبـيـحـ، بـدـونـ تـارـيخـ.

● وفي عصرنا الحديث، نجد السيادة لهذا النهج الإسلامي العظيم.. فعندما يخلط واحد من دعاة «التغريب» - هو فرح أنطون [١٨٧٤م - ١٩٢٢م] - بين موقف الإسلام ونهجه هذا وبين الكهانة الكنسية الغربية التي زعمت لنفسها حق الحكم على العقائد والضمائر، ينبرىء إمام الاجتهاد الإسلامي الحديث، والابن البار للأزهر الشريف الشيخ محمد عبد [١٢٦٦هـ / ١٨٤٩م - ١٩٠٥م] ليقول: «إن الله لم يجعل الخليفة ولا للقاضي ولا للمفتى ولا لشيخ الإسلام أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام.. ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه، أو ينazuه في طريق نظره.. فليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى الخير والتغيير عن الشر، وهي سلطة خوّلها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلامهم، كما خوّلها لأعلامهم يتناول بها من أدناهم.. وليس لسلام، مهما علا كعبه في الإسلام، على آخر، مهما انحطت منزلته فيه، إلا حق النصيحة والإرشاد.. ولقد اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم أنه إذا صدر قول من قائل حتحمل الكفر من مائة وجه، ويتحمل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر..<sup>(١)</sup>»

فكان في هذا الفكر الوجه المشرق للإسلام في هذا الموضوع.. تعلم منه أهل الإخلاص من «الإسلاميين» ومن «العلمانيين» على حد سواء!.

● بل وما لنا لا نذكر كل الفرقاء، من أنصار أسلمة الواقع والقانون، ومن دعاة «التغريب» والتبغية للغرب في الفكر والسلوك.. ما لنا لا نذكر كل هؤلاء الفرقاء بنهج الأزهر، تاريخياً، في مثل هذه الأمور..

لقد جاء حين من الدهر ادعى فيه واحد من علماء الأزهر - هو المرحوم الشيخ على عبد الرازق [١٢٠٥م - ١٢٨٦هـ / ١٨٨٧م - ١٩٦٦م] - دعوى لم يقل بمثيلها عالم مسلم عبر تاريخ الإسلام الطويل.. ادعى أن الإسلام دين لا دولة، وأن نبيه رسول رسالة روحية وليس حاكماً ولا قائداً دولة، وأن هذا الإسلام مثله كمثل المسيحية يدعو لأن ندع ما لقيصر لقيصر وما لله لله!<sup>(٢)</sup>..

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبد) ج ٢ ص ٢٨٢ - ٢٨٩. دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

وعندما تصدى الأزهر، يومئذ، لهذه الدعوى، وجدنا وثائقه الفكرية، التى نقضت هذا الزعم، قد بررت من أى اتهام للرجل فى عقيدته.. استوت فى ذلك «حيثيات» حكم «هيئة كبار العلماء»، وما كتبه الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين فى كتابه [نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم] وما كتبه الفتى محمد نجيب المطيعى فى كتابه [حقيقة الإسلام وأصول الحكم]..

بل وكان ذلك هو التزام الأزهر وعلمائه عندما خرج الدكتور طه حسين سنة ١٩٢٦ م بكتابه [فى الشعر الجاهلى].. وفيه ما فيه من إلقاء ظلال الشك الديكارتى على بعض من قصص القرآن الكريم؟!..

فبدءاً من القرآن الكريم.. إلى السنة النبوية الشريفة.. إلى النهج الذى انتهجه أئمة الإسلام وأعلامه.. والذى جسده موافق الأزهر الشريف، عبر تاريخه العريق،.. كانت مقارعة الحجة.. والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.. والتحرّج كل التحرّج من الكهانة والسلطة الدينية في الحكم على الضمائر والعقائد والأفئدة والقلوب..

وعندما أصبحت بعض الفصائل الشبابية في حركة الصحوة الإسلامية المعاصرة بداعي الحكم على عقائد المسلمين بالكفر وعلى مجتمعاتهم بالارتداد إلى الجاهلية.. كان الأزهر في مقدمة من تصدى لهذا الانحراف عن نهج الإسلام بالنقد والتقييد والتوجيه.. تلك هي تقاليد الإسلام الدين.. والإسلام الحضارة، مع هذه القضية، التي يجب أن يرعى فيها الجميع هذه التقاليد التي أرساها الإسلام منذ أن نزل الوحي بكتابه المبين على قلب الصادق الأمين، عليه الصلاة والسلام.

\* \* \*

إن طوق النجاة لهذه الأمة إنما يكمن في «الإبداع» و«الاجتهاد» و«التجديد»، الذي تصوغ به مشروعها الحضاري المتميز عن المشروع الغربي، كشرط ضروري لنجاح جهادها المقدس لوضع هذا المشروع في الممارسة والتطبيق..

وإن هذا البلاء، المتمثل في «ضيق الأفق» و«ضيق الصدر الفكري» إلى حد تكفير المخالفين.. إن هذا البلاء هو أعدى أعداء «الإبداع» و«الاجتهاد» و«التجديد»!.. فليت الله المخلصون - الغافلون - من مختلف الفرقاء!!.

## الفصل الرابع

### في الحرية الاجتماعية

عندما يكون عنوان هذا البحث - وهو مقترن علينا.. لم نختاره نحن - هو (الشباب .. والحرية في المجتمع) .. فلابد في البدء من إشارة للضبط تستهدف الإيضاح ..

ففى الإسلام، ديناً وحضارة، لا فرق ولا تمييز بين «الشباب» وبين «الرجال» الذين تجاوزوا مرحلة الشباب .. ولا بين الشباب - وهم الذكور - وبين الشهوان - الإناث .. عندما يكون الحديث عن «الحرية في المجتمع». ذلك لأن «الشباب» فى مفهوم العربية - وهى لسان الإسلام هو «الفتاء والحداثة»<sup>(١)</sup> أى بداية المرحلة العمرية التي يبدأ فيها، عادة، طور بلوغ الإنسان المسلم سن «التكليف» بالواجبات الإسلامية، فردية كانت أو اجتماعية تلك الواجبات.

فمع «الشباب» يبدأ «تکلیف» الإنسان - كإنسان - بما فرضه الله عليه من واجبات .. ويستمر هذا التكليف، دون تغيير، على امتداد مراحل العمر المتميزة، ما استمر املاك هذا الإنسان لشروط هذا التكليف .. تستوى في ذلك مراحل الشباب والرجولة والكهولة والهرم .. إلخ.

هذا عن الضبط، الذي استهدفتنا به إيضاح نطاق العنوان.

\* \* \*

(١) انظر (القاموس المحيط) للفيروز أبادي و(لسان العرب) لابن منظور.

أما عن نظرة الإسلام، دينًا وحضارة إلى حرية الإنسان الاجتماعية.. أى حرية الإنسان في المجتمع الذي يعيش فيه.. فإنها.. باعتقادى.. نظرة متميزة.. ذات خصوصية.. وإذا لم يرجع تميزها وتتبع خصوصيتها من اختلاف الإسلام عن الديانات السماوية الأخرى، لوحدة المصدر الإلهي لهذه الديانات جميعاً، فإن مرجع هذا التمييز ومصدر هذه الخصوصية هو التمايز الحضاري، الذي طبعت سماته وطُوّعت قسماته ببعضها من تصورات وفلسفات تلك الديانات.. ومن ثم فإن المقارنة، أو المفاضلة لن تكون، في حقيقتها، بين الديانات إذا نحن عدنا بها إلى صورتها الجوهرية والنقدية في مصدرها الإلهي الواحد، وإنما بين ما آلت إليه بعض من تصوراتها التي طوّعت خصوصيات حضارات معينة انتشرت بين أبنائها تلك الديانات.. وانطلاقاً من هذه الحقيقة، فإننا نستطيع أن نقول: إن التصور الإسلامي.. الذي لم يُغَيِّر بالفكر الوافد على الشرق الإسلامي.. سواء أكانت وفاته قبل ظهور الإسلام أو بعده.. إن هذا التصور، إنما يمثل بناءً متكاملاً، من الممكن أن نلقى عليه الضوء، إذا نحن فصلنا الحديث عن أبرز لبناته وسماته وقسماته.. من مثل:

(أ) مكانة الحرية الإنسانية في فلسفة الإسلام..

(ب) وعلاقة ذلك بنظرية الإسلام المتميزة لمكانة الإنسان في الكون..

(ج) والتميز.. تبعاً لذلك.. الذي حدد الإسلام لمكانة الإنسان في المجتمع.

في إلقاء بعض الأضواء على هذه السمات الرئيسية التي تكون معاالم بناءً فلسفة الإسلام في الحرية الإنسانية نأمل أن تتحدد و تستبين حقائق هذا الموضوع.

## الإسلام والحرية

في نظرة الإسلام إلى مقومات الحياة الإنسانية.. ضرورياتها، و حاجياتها، و تحسيناتها.. نلمح التمييز بين «الثواب» و «المتغيرات».. وفي مقدمة «الثواب» التي جعل الإسلام الحفاظ عليها فريضة شرعية واجبة: «الحفاظ على الحياة».. إذ بدون الحفاظ على «النفس - الحياة» يصبح الحديث عن الاجتماع الإنساني، والدين والتدين لغوًّا ليس له «موضوع» يتتيح له التحقق في الوجود.

والحفاظ على «الحياة» في المنظور الإسلامي، ليس مجرد حفاظ على «حق» من «حقوق» الإنسان.. وإنما هو إقامة لواجب شرعي وامتثال «لفرضية إلهية» وتحقيق واحدة من أهم «الضرورات الإنسانية».. لقد تجاوز الإسلام بـ«الحفاظ على الحياة» مستوى «الحق» الإنساني.. لأنها لو كانت.. الحياة - مجرد «حق» لكان لصاحبها أن يتنازل عنده بالانتحار، دون أن يلحقه إثم أو تشريب.. لكنها، وقد رأها الإسلام فريضة واجبة، لا يجوز حتى لصاحبها، أن يفرط فيها.. فهو يأثم إذا قنط من رحمة الله فانتحر.. ويأثم إذا فرط في توفير مقوماتها - غذاء وكساء وأمناً.. حتى لو اضطر في سبيل ذلك إلى القتل والقتال.. لأنه إذا طلب مقومات حياته، حتى بالقتل ضد الخالمة والمعتدين والمحتكرين، فهو فائز بإحدى الحسنيين.. إن انتصر كان ماجوراً بصيانته وأدائه واجباً شرعياً، هو الحفاظ على حياته.. وإن قتل في سبيل ذلك فهو شهيد!

تلك هي فلسفة الإسلام إزاء «الحياة» والتي جعلت «القصاص» حفاظاً عليها هو عين «الحياة» {ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتفقون} [البقرة: ١٧٩].. والتي شبّهت قتل النفس الواحدة بقتل الجميع {من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً} [المائدة: ٢٢]

\* \* \*

وإذا كان هذا هو مكان «الحفاظ على الحياة» في فلسفة الإسلام.. فإن «الحفاظ على الحرية الإنسانية» هو لها قرين.. لأن «الحرية»، بنظر الإسلام هي القرير المساوى «للحياة»!.. فرأها هي الأخرى، فرضية إلهية واجبة، ورأى في الحفاظ عليها وعلى مقوماتها حفاظاً على ضرورة إنسانية، وليس على مجرد «حق» إنساني يجوز لصاحبها أن يتنازل عنه.

وإذا كانت «الحرية» هي نقىض «العبودية»، وإذا كان «التحرير» هو نقىض «الاسترقاق»، فقد نبه علماء الإسلام على أن العلة والحكمة في جعل الشريعة الإسلامية «تحرير الرقبة» - أي عتق الرقيق - كفاراة عن «القتل الخطأ»، هو ما في «الرق والعبودية» من معنى «الموت» وما في «العتق والحرية» من معنى «الحياة»!.. فمن أخرج

من الحياة نفساً إنسانية، بقتلها خطأ، فعليه - كفارة عن ذلك - أن يُدخل في الحياة نفساً إنسانية أخرى بتحريرها من موت الاسترقاق!.. وبعبارة الإمام النسفي - أبو البركات، عبد الله بن أحمد (٢١٠ هـ / ٣٦١ م) : «... فإنه - (أى القاتل) - لما أخرج نفساً من جملة الأحياء، لزمه أن يُدخل نفساً مثلاً لها في جملة الأحرار؛ لأن إطلاقها من قيد الرق بإحيائها، من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات؛ إذ الرق أثر من آثار الكفر، والكفر موت حكماً...»<sup>(١)</sup> أو من كان ميتاً فأحييته <sup>(٢)</sup> [النساء: ٩٢].

بل لقد ذهب الإسلام على هذا الدرج إلى الحد الذي اعتبر فيه أن حرية الإنسان الاجتماعية في:

(١) الاهتمام بشئون مجتمعه والإسهام في صلاحها وإصلاحها.. متمثلاً في النهوض بفريضة: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

(ب) تنظيم علاقته بالأشياء، ما هو حلال منها وما هو حرام..

(ج) وتحرير ذاته وطاقاته وملكاته من القيود والأغلال..

اعتبر الإسلام حرية الإنسان الاجتماعية هذه، وفي هذه الميادين الاجتماعية: «الواجب»، الذي تمثل وتتجسد فيه جماع رسالة خاتم الرسل والأنبياء: محمد بن عبد الله عليهما السلام... فتحدث القرآن الكريم عن هذه القيم باعتبارها جماع الرسالة الإلهية التي أوحى بها الله، سبحانه وتعالى، إلى محمد.. وقالت آيته الكريمة: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِيَّ الَّذِي يَجَدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التُّورَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَحِلُّ لَهُمُ الطَّيَّابَاتِ وَيَحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثِ وَيَضْعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ» [الأعراف: ١٥٧].

فحرية الإنسان الاجتماعية.. التي هي فريضة إلهية وضرورة شرعية.. على النحو الذي يتيح لهذا الإنسان أن يسهم في سياسة مجتمعه، وتنمية عمران بيئته، وإقامة

(١) [مدارك التنزيل وحقائق التأويل] - تفسير النسفي - ج ١ ص ١٨٩، طبعة القاهرة ١٤٤١هـ [فى تفسير الآية ٩٢ من سورة النساء]: «وَمَنْ قَاتَلَ مُؤْمِنًا خَطَا فَتَحِيرُ رُقْبَةً مُؤْمِنَةً وَدِيَةً مُسْلِمَةً إِلَى أَهْلِهِ».

سائر «الفرائض الاجتماعية» كالعدل.. والشورى.. والعلم.. وكرامة الإنسان وتكريمه.. . إلخ.. هذه الحرية تجاوز الإسلام بها نطاق «الحق» إلى مستوى «الفرضية».. وكذلك خرج بها من إطار «فرض العين» - الفردي - إلى إطار «فرض الكفاية» - الاجتماعي - والذي هو أعلم وأكذر من «فرض العين»، لأن تخلف فرض العين إنما يقع إثنم على الفرد، أما الإثم في تخلف الفروض الاجتماعية فإنه واقع على الأمة جماء! . تلك هي مكانة حرية الإنسان الاجتماعية في فلسفة الإسلام.

## مكان الإنسان في الكون

ولقد عرف الفكر الإنساني، وتطبيقاته، مذاهب عددة تميزت في موقفها من مكانة الإنسان في هذا الكون ومركزه في هذا الوجود.

● فمن المذاهب والفلسفات من رأه: ذلك «الحقير»، الساعي - كي يحقق رقيه وخلاصه - إلى الفناء والتلاشي والذوبان.. الفناء في الذات الإلهية - كما عند بعض مذاهب التصوف - أو الفناء في الكل والإمحاء فيه - كما في الترفانا Nirvana الهندية .. وهي، لذلك، قد وضعت تعذيب الجسد وتحقيق المادة، وإدارة الظاهر للذات الدنيا: كمراتب للتقدم الإنساني على درب الخلاص، ولارتقاء النفس والروح على طريق الفنان والإمحاء! ..

● ومن المذاهب والفلسفات من وقف - في هذه القضية - عكس هذا الموقف تماماً، فتبني أصحابه النزعة المادية التي رأت في الإنسان سيد الكون ومحور الوجود؛ لأنها لم تبصر، أو لم تتعترف للكون والوجود بسيده سواه.. ولقد عرفت الإنسانية هذه النزعة منذ القدم - فرأينا - منذ اليونان القدماء - من أنكر الله .. ومن جعل الإنسان البطل هو الإله! .. فكانت «أنسنة الإله» في حقيقتها، صورة من صور النزعة المادية التي «ألهت الإنسان»!

● كذلك عرفنا في التراث الشرقي القديم الفلسفة الغنوصية Gnosticism ذات الأصول الهلينية - اليونانية - والتي مثلت في علاقة الغرب بالشرق - فكريًا - التغريب القديم؛ والتي سادت في الشرق بعد الهيمنة اليونانية والرومانية التي بدأت بغزوة

الإسكندر الأكبر (٣٥٦ ق.م - ٣٢٤ ق.م) وامتزجت بمواريث الفرس ومذاهبهم وبالديانة الشعبية الإسرائيلية..

ورغم الطابع الصوفى لهذه الغنوصية، إلا أن اعتمادها «العرفان الذاتى»، النابع من المجاهدة الروحية الذاتية، طريقاً للمعرفة التى هي «الخلاص» وليس الإيمان، بواسطة النص أو العقل. رغم هذا الطابع الصوفى للغنوصية، إلا أن مذهبها العرفانى، وبالذات قولها بنوع من الوحدة المادية للوجود، قد جعلها شديدة القرب من أصحاب النزعة المادية.. لأنها عندما قالت بالتجسد والحلول، انتهت إلى «أنسنة الإله» التي هي «تألية للإنسان»..

ولقد خاضت هذه الغنوصية صراعات تاريخية ضد ديانات الشرق السماوية، فغبشت نقاء عقيدة التوحيد لدى كثير من مذاهب المسيحية.. وصنعت ذات الشئ لدى بعض من مذاهب الإسلام التي قال أصحابها بهذا اللون من ألوان وحدة الوجود!.

● أما الإسلام، فـى أصوله الجوهرية ومنابعه النقية، وفى مذاهبه التي لم تغشها الغنوصية.. فقد اتـخـذ موقـعاً مـتمـيـزاً فى قضـيـة مـرـكـزـ الإـنـسـانـ فـىـ الكـوـنـ وـمـكـانـهـ فـىـ هـذـاـ الـوـجـودـ.

فالإنسان، بمنظـرـ الإـسـلامـ، ليسـ الحـقـيرـ السـاعـىـ إـلـىـ الفتـاءـ وـالـإـمـحـاءـ.. وـلـيـسـ السـيـدـ فـىـ هـذـاـ الـوـجـودـ.. وإنـماـ هوـ وـسـطـ بـيـنـ هـذـيـنـ الـمـوـقـعـيـنـ!.. إـنـهـ سـيـدـ فـىـ الكـوـنـ، دونـ أـنـ يـكـوـنـ سـيـدـ.. وـلـهـ سـخـرـتـ كـلـ طـاقـاتـ الطـبـيـعـةـ وـظـواـهـرـهـاـ، لـاـ ليـكـونـ السـيـدـ المـطلـقـ فـىـ تـعـامـلـهـ معـهـاـ، وـإـنـماـ لـيـتـعـامـلـ وـإـيـاـهـاـ بـسـاطـةـ وـسـاطـانـ الـخـلـيفـةـ وـالـوـكـيلـ وـالـنـائـبـ عنـ اللهـ، سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ، السـيـدـ المـطلـقـ لـهـذـاـ الـوـجـودـ.. فـحـريـتـهـ لـيـسـ عـدـمـاـ.. وـهـىـ، كـذـلـكـ، لـيـسـ مـطـلـقاـ.. وـإـنـماـ هوـ حـرـ حرـيـةـ الـخـلـيفـةـ وـالـنـائـبـ وـالـوـكـيلـ، الـفـاعـلـ وـالـصـانـعـ، بـحـرـيـةـ، فـىـ إـطـارـ وـنـطـاقـ وـحـدـودـ الـشـرـيـعـةـ، الـتـىـ تمـثـلـ مـقـاصـدـهـاـ وـحـدـودـهـاـ «ـبـنـوـ عـقـدـ الـاسـتـخـالـفـ وـالـتـوـكـيلـ»..

ذلك هو رأى الإسلام في مركز الإنسان في الكون.. وتلك هي فلسفتة في تحديد نوع ونطاق حرية الإنسان في المجتمع الذي يعيش فيه..

إن الإنسان، في المنظور الإسلامي، هو المخلوق الذي كرمه خالقه على سائر المخلوقات، بمن فيهم الملائكة المقربون.. ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثيرٍ مِّنْ خلقنا تفضيلا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وهو المخلوق الذي كرمه خالقه بالعديد من الوان التكريم وأياته.. فلقد جعله المفرد والمنفرد بحمل أمانة الاختيار والحرية والمسؤولية، ومن ثم التكليف، دون سائر المخلوقات.. ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأُمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالجَبَالِ فَأَبْيَانِ أَنْ يَحْمِلُوهَا وَأَشْفَقْنَاهُمْ مِّنْهَا وَحَمَلُهَا إِلَّا إِنْسَانٌ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وحتى يتمكن من شروط حمل الأمانة، فقد سخر الله له قوى الطبيعة وظواهرها وطاقاتها.. ﴿أَلَمْ ترُوا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبِأَطْنَاءِ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [لقمان: ٢٠] ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [النَّاهَارَ: ٢٢] ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ النَّمَاءَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْخَرُوا مِنْهُ حَلْيَةً تُلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَا خَرَ فِيهِ وَلَتَتَبَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعِلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النَّحْل: ٤].

شاء الله ذلك كله، وصنعه للإنسان.. كرمه وفضله على سائر المخلوقات.. وخصه بأن سخر له الطبيعة وقوتها، بالعلم الذي يسلس قيادها بمعرفة قوانينها.. لكن.. لا ليكون السيد الفرد صاحب القول الفصل والحرية المطلقة في هذا الكون.. وإنما ليكون الخليفة الذي يسعى لإنجاز مهام الخلافة والنيابة والتوكيل.. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٢٠] ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفُنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي أَرْتَضَنَّ لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمِنْ كُفَّارَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥] ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

ذلك هو نهج الإسلام ومذهبه في الحرية الإنسانية..

رفع مكان الحرية في فلسفته؛ لتكون ضرورة شرعية وفرضية إلهية، تساوت مع «الحياة» ولم يقف بها عند درجة «الحق»، الذي يجوز لصاحبها أن يتنازل عنه دونما تأثير ولا تجريم. ورفع مكان الإنسان على سائر المخلوقات.. وجعل الحرية هي معيار فضله وسبب تفضيله.. لكنه وقف بمحنته، وبنطاق حريته موقعاً وسطاً.. أى موقفاً عدلاً<sup>(١)</sup>.. فهو سيد بين المخلوقات، وليس سيد الوجود.. وحريته ليست حرية الفعال لما يريد، الذي لا يُسألُ عما يفعل.. وإنما هي حرية الخليفة والنائب والوكيل عن الله، سبحانه وتعالى، محاكمة بالشريعة: بنود عهد الخلافة وعقد التوكيل!..

وإذا كانت تلك هي مكانة الإنسان في الكون - بنظر الإسلام - ونطاق حريته فيه.. فلا بد وأن يتسع معها نطاق «الحرية الاجتماعية»، للإنسان المسلم، في المجتمع الذي يعيش فيه..

## الحرية الاجتماعية للإنسان

وكما اختلفت مذاهب الفكر حول مكانة الإنسان في هذا الكون، فلقد اختلفت كذلك، وتبعاً لذلك حول مدى ونطاق حريته الاجتماعية في المجتمع الذي يعيش فيه..

● فالليبرالية - كما أفرزتها وعرفتها الحضارة الغربية - قد أطلقت حرية الفرد، وانحازت إليه على حساب المجموع.. ففي الفكر أعطته كل الحرية ليخالف وينقض كل ما تعارف عليه المجموع من القيم والمبادئ والشرائع والأعراف.. حتى لقد وصف ذلك وحكم به المتردّبون من أبناء أمتنا فقالوا - بلسان واحد من الرواد: «الحرية الحقيقة تحتمل إبداء كل رأي، ونشر كل مذهب، وترويج كل فكر. وفي البلاد الحرة قد يجاهر الإنسان بأن لا وطن له، ويكتفر بالله ورسله، ويطعن على شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم، ويهزأ بالمبادئ التي تقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية». يقول ويكتب

(١) مصطلح «الوسط» - إسلامياً - معناه «العدل». وفي الحديث النبوي الشريف: «الوسط: العدل. جعلناكم أمة وسطاً» رواه الترمذى والإمام أحمد.

ما شاء في ذلك، ولا يفكر أحد، ولو كان ألد خصومه في الرأي، أن ينقص شيئاً من احترامه لشخصه، متى كان قوله صادراً عن نية حسنة واعتقاد صحيح...».

وبعد أن عرض قاسم أمين (١٢٨٠هـ / ١٩٦٣م - ١٢٦٥هـ / ١٩٠٨م) مذهب الليبرالية الغربية في الحرية الفكرية الفردية - على هذا النحو - تساؤل متمنياً - فقال: «كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية؟!»<sup>(١)</sup>

أما في المال والثروة والاقتصاد، فإن هذه الليبرالية الغربية تتبع وتبيح للفرد الحرية المطلقة ليصنع بالمال - الذي أباحت له تملكه بإطلاق.. ما يشاء.. فهو تدعه يعمل.. وتدفعه يمر.. وتبيح له حتى حرية أن يحرق ما يمتلك من أموال!..

وكما تذهب هذه الليبرالية على درب الحرية المطلقة إلى حد إعانته «الفرد» على أن تتقدم مصالحه على «المجموع»، نرى انحيازها لطبقتها البورجوازية يبلغ حد الانتصار لنفسي البورجوازية - كطبقة - لخصيمها الاجتماعي - الإقطاعية - كطبقة.. فالطرف، والافتقار إلى الوسطية، يثير هنا نفسي القطب للقطب الآخر.. الفرد ينفي المجموع.. والطبقة لا بد لها - بواسطة الصراع الطبقي - من أن تنفي التفاصيل!.. إذ لا قيد على حرية من إليه تنحاز؛ لأن الحرية لا تعرف الحدود!.

ونفس الشيء ذهبت إليه الليبرالية في التشريع.. فالهيئة التشريعية، التي اختارها الشعب، تحمل الصلاحيات المطلقة لتعمل الحرية المطلقة في التشريع، حتى لو سنت من القوانين ما يحل الحرام ويحرم الحلال، وينفي ثواب الشرائع الإلهية.. فهي لا تعرف حرية الإنسان حدوداً..

● أما الشمولية، التي عرفها الغرب انشقاً على الليبرالية ورد فعل لها - فإنها لم تخرج عن هذه الفلسفة في الحرية، والتي تطلق للإنسان فيها العنان.. فقط انحازت إلى الطبقة بدلاً من انحياز الليبرالية إلى الفرد.. وفي مقابل الطبقة المالكة التي انحاز إليها الليبراليون، كان انحياز الشموليين للبروليتاريا والأجراء.. معبقاء الموقف المتطرف،

---

(١) قاسم أمين: (الأعمال الكاملة) ج. ١ ص ١٦٤، ١٦٥. دراسة وتحقيق: د. محمد عماره، طبعة بيروت سنة ١٩٧٦م.

الذى لا يعترف الوسطية، والذى يذهب بالصراع إلى حد «نفي الآخر».. فالمجموع ينفى الفرد.. والبروليتاريا تنفى البرجوازية بالصراع الطبقي؛ لتقيم مجتمع طبقة الاجراء ودولتها على أنقاض مجتمع ودولة طبقة المالك.

اعرفت مذاهب الغرب الفكرية هذه الفلسفية فى الحرية الاجتماعية للإنسان، تعبيراً عن المذهب الذى جعل الإنسان سيد هذا الوجود.. فسيد الوجود، غير متصور أن توضع على حرية آية قيود!..

● أما الإسلام - الذى اعتمد الوسطية طابعاً لفلسفته فى كل الميادين - فإنه، بعد أن حدد درجة «الخليفة» مكاناً للإنسان فى هذا الكون، جاعلاً إياه سيداً فى الكون، وليس سيد الكون، رأيناهم يسلك السبيل الوسط فى تحديد نطاق الحرية الاجتماعية للإنسان.

فالفرد حرة، الحرية التى لا تنفى ولا تنقض حرية المجموع.. والجماعة حرة، الحرية التى لا تحول الفرد إلى مسماً أصم فى ترس الآلة الاجتماعية!..

والصراع، الذى رأيناها فى الفكر الغربى أداة لا تعرف التوقف حتى تنفى الآخر والنقىض.. لم يرضه الإسلام، وإنما جعله «تدافعاً» هو سنة من سنن الله فى الكون، بدون إعماله يكون الثبات والدمار والموت.. ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم بعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ [البقرة: ٢٥١] ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ [٣٦] ﴿الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم بعض لهدمت صوامع وبئر وصلواتٍ ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوٰ عزيز﴾ [الحج: ٤٠، ٣٩].

فالإسلام، رفضاً منه إطلاق الحرية الاجتماعية للإنسان، قد رفض إطلاق العنوان لأداة الصراع حتى ينفى القطب نقىضه.. فليس المطلوب أن تنفى البرجوازية طبقة الإقطاع لتقيم دولة الطبقة ومجتمع الطبقة البرجوازية.. ولا أن تنفى البروليتاريا طبقة البرجوازية لتقيم دولة الطبقة ومجتمع الطبقة البروليتارية.. وإنما المطلوب - إسلامياً

- أن نعمل التدافع أداة تعيد التوازن إلى عرشه عندما يخلعه الخلل الاجتماعي عن هذا العرش .. فإذا مالت كفة التوازن الاجتماعي، ومن ثم السياسي والفكري، لحساب طبقة على حساب الأخرى، فإن التدافع هو سبيلنا إلى إعادة التوازن بين الطبقات، استهدافاً لمجتمع «الأمة» ودولة «الأمة» - لا مجتمع «الطبقة» ودولة «الطبقة» - فلحظة التوازن الاجتماعي هي «المثال» والهدف؛ لأنها «الوسط» الذي تتمثل فيه وسطية الإسلام.. أي عدالة الإسلام.

وهذا النطاق المحدد لحرية الإنسان .. كفرد إزاء المجموع .. وكجماعة إزاء الفرد .. وكطبقة إزاء غيرها من الطبقات، هو التعبير عن المذهب الوسط الذي رأه الإسلام مكاناً ودرجة للإنسان في هذا الوجود .. سيد في الكون .. لكنه ليس سيداً .. وإنما هو الخليفة والنائب والوكيل عن سيد هذا الوجود.

ولقد ذهب الإسلام، في ميدان الفكر، ذات المذهب الذي رأيناه في ميدان الاقتصاد والمجتمع .. فليس لفرد ولا لجماعة أن تهدر ما تعارفت عليه الأمة من قيم وأعراف ولا ما آمنت به من شرائع ومعتقدات .. كما لا يجوز للجماعة أن تحجر على اجتهادات وتجديدات المبدعين المجتهدين المجددين .. فهناك «الثوابت» و«الأصول»، التي تمثل الطابع الحضاري والخصوصية الحضارية والشخصية القومية للأمة، والتي تجسد الخطوط العريضة لمذهبها المتميّز، ومشروعها الحضاري الخاص .. في هذه «الثوابت» و«الأصول» يكون الاتفاق، ويُمتنع النقض والهدم والشقاق ..

أما «المتغيرات» و«الفراء» و«السبل» و«المناهج» و«الرؤى»، التي تتمايز بتمايز الفرقاء والتيارات الفكرية والسياسية، والتي يحبذها ويرشحها كل فريق، سبيلاً لتحقيق «الثوابت» و«الأصول»، فإنها موضوع للحرية، وميدان للاجتهداد الذي لا يعرف الحجر ولا القيد.

ونحن عندما ننظر في الإطار الذي سنه مفكرو الإسلام للاجتهداد الإسلامي، نجد مصدراً لهذا المذهب الإسلامي في حرية الاجتهداد، وفي حدود ونطاق هذه الحرية .. فثوابت الدين وأصوله، لا مجال فيها للاجتهداد، اللهم إلا اجتهاداً يلحق العبريات

بالكليات.. أما الفروع، والتي تشمل الدولة وسياستها والمجتمع وإدارته، والمال وتنميته، والعمان وترقيته، والفقه وتقنيه.. وكل شئون الدنيا وعلومها وصناعتها.. الخ.. إلخ.. فإنها ميادين لا ترتفع أعلامها إلا بالاجتهد، الذي يسلك سبيل الحرية كى يثمر الإبداع فى هذه الميادين..

وكذلك الحال فيما هو «حاكمية إلهية»، وقفـت عند الفلسفـات والـكلـيات والـمقـاصـدـ الـتـى تمـثلـتـ فـىـ «ـالـشـرـيـعـةـ».. وـفـيـماـ هـوـ «ـحـاـكـمـيـةـ بـشـرـيـةـ»، جـعـلـتـ الـأـمـةـ مـصـدرـ السـلـطـةـ وـالـسـلـطـانـ فـىـ الـفـرـوعـ وـالـجـزـئـيـاتـ وـالـنـظـمـ وـالـمـؤـسـسـاتـ وـالـتـطـبـيـقـاتـ، وـذـلـكـ فـىـ إـطـارـ مـقـاصـدـ الشـرـيـعـةـ وـفـلـسـفـتـهاـ وـروحـ نـهـجـهاـ.. فـهـنـاـ الـأـمـةـ حـرـةـ، وـهـىـ -بـوـاسـطـةـ مـجـتـهـدـيـهاـ وـقـادـةـ الرـأـىـ فـيـهاـ وـمـمـثـلـيـ مـصـالـحـ طـبـقـاتـهاـ.. تـجـهـدـ فـىـ فـقـهـ وـاقـعـهاـ، وـفـىـ تـطـوـيرـهـ، وـفـىـ سـنـ الـقـوـانـينـ الـتـىـ تـحـكـمـ حـرـكـتـهـ.. لـكـنـ، دـوـنـ أـنـ تـخـرـجـ مـنـ إـطـارـ الشـرـيـعـةـ، أـوـ تـنقـضـ مـقـاصـدـ الـحـاـكـمـيـةـ إـلـهـيـةـ، أـوـ تـتـعـدـىـ حدـودـ اللهـ بـتـحـلـيلـ الـحـرـامـ أـوـ تـحـرـيمـ الـحـلـالـ.. إـنـهـاـ حـرـيـةـ الـخـلـيفـةـ وـالـنـائـبـ وـالـوـكـيلـ، الـمـحـكـومـةـ بـنـطـاقـ عـهـدـ الـخـلـافـةـ وـبـنـوـدـ عـقـدـ النـيـابةـ وـالـتـوـكـيلـ.

\* \* \*

ومـثـلـ ذـلـكـ نـحـنـ وـاحـدـوـهـ إـذـاـ بـحـثـنـاـ عـنـ أـقـرـبـ الـاجـتـهـادـاتـ إـلـىـ رـوـحـ الـمـوقـفـ إـلـاسـلامـ فـيـ الـقـضـيـةـ الـتـىـ شـغـلـتـ الـعـقـلـ إـلـإـنـسـانـ حـولـ «ـالـجـبـرـ» وـ«ـالـاخـتـيـارـ» وـمـدىـ وـنـطـاقـ حـرـيـةـ إـلـإـنـسـانـ فـيـ هـذـاـ الـوـجـوـدـ..

فـلـاـ الـذـينـ قـالـواـ «ـبـالـجـبـرـ الـخـالـصـ»ـ قـدـ أـصـابـواـ فـيـ التـعـبـيرـ عـنـ حـقـيـقـةـ فـلـسـفـةـ إـلـاسـلامـ فـيـ هـذـاـ الـقـامـ.. وـلـاـ الـذـينـ تـوـهـمـوـهـ حـرـأـ لـاـ تـعـرـفـ حـرـيـةـ الـحـدـودـ وـلـاـ الـقـيـودـ، قـدـ أـصـابـواـ كـذـلـكـ.. وـإـنـمـاـ هـوـ الـمـوقـفـ الـوـسـطـيـ، الـمـعـبـرـ عـنـ فـلـسـفـةـ إـلـاسـلامـ..

فـأـنـتـ حـرـ.. تـلـكـ هـىـ الـحـقـيـقـةـ الـمـوـضـوعـيـةـ وـالـلـمـوـسـوـةـ.. لـكـ حـرـيـتـكـ وـاـخـتـيـارـكـ، لـيـسـتـ حـرـيـةـ الـقـادـرـ عـلـىـ كـلـ شـيـءـ، وـلـاـ الـذـىـ يـفـعـلـ مـاـ يـشـاءـ وـكـأـنـهـ فـيـ فـرـاغـ!.. إـنـكـ تـخـتـارـ.. نـعـمـ.. وـلـكـ مـنـ بـيـنـ بـيـنـ بـيـنـ لـمـ تـصـنـعـهـاـ أـنـتـ، فـاـخـتـيـارـكـ مـحـكـومـ بـحـدـودـ هـذـهـ الـبـدـائـلـ الـتـىـ لـيـسـتـ مـنـ صـنـعـكـ!.. وـإـرـادـتـكـ حـرـةـ.. هـذـهـ حـقـيـقـةـ.. لـكـ هـذـهـ إـرـادـةـ الـحـرـةـ هـىـ ثـمـرـةـ لـحـيـطـ

ولعوامل ولؤثرات ليست من صنعتك، وسواء أكانت حولك، أو في نفسك مما ورثته، أو لا تستطيع صنعه أو تعديله، فإنها جمِيعاً تسهم في تلوين إرادتك «الحرة»، وتحديد نطاق «حريتها»!..

إذن، فحريتها نسبية.. وأنت حر، ولكن في حدود!.. وإذا كانت «حرية الإنسان» هي «القوية» التي يختار بها ويريد ويفعل.. وإذا كانت العوامل المحيطة والملابسات المصاحبة، هي «القدر الإلهي»، الخارج عن نطاق الفعل الإنساني، فإن العلاقة بين هذين العاملين هي التي تحدد نطاق حرية الإنسان.. فالحرية، هنا، ليست تقليضاً لـ«القدر»، وإنما هو حاكم لإطارها ومداها؛ لأنها حرية الخليفة، المحكومة بقدر السيد الفعال لما يريد.. ورحم الله فيلسوف الإسلام أبو الوليد ابن رشد [١١٢٦هـ - ٥٩٥هـ / ١١٩٨م - ١١٩٥م] الذي أجاد التعبير عن مذهب الإسلام في هذا الأمر المشكّل فقال: «إن لنا قوى نقدر بها أن نكتسب أشياء هي أضداد. لكن لما كان الاكتساب لتلك الأشياء ليس يتم لنا إلا بمواتة الأسباب التي سخرها الله لنا من خارج، وزوال العوائق عنها، كانت الأفعال المنسوبة إلينا تتم بالأمرتين جميعاً: بيارادتنا، وموافقة الأفعال التي من خارج لها!.. وهذه الأفعال التي من خارج «هي المعبر عنها بقدر الله»<sup>(١)</sup>!.. فمذهب الإسلام هو التوسط بين «الجبر» المطلق وـ«الاختيار» الذي لا يعرف القيود!..

وإذا نحن شئنا مقارنة تبرز لنا تميز هذا المذهب الإسلامي في الحرية والاختيار، عن ذلك الذي رأى أهله أن الحرية المطلقة هي حق الإنسان.. فإننا واجدون في بصمات الفكر الغنوسي لدى بعض المذاهب الإسلامية نموذج ذلك ومصادقه.. «فأنسنة الإله».. بالحلول والاتحاد.. قد أدت إلى «تأليه الإنسان»، ودعوى حريتها المطلقة.. وعن هذا المذهب يعبر فيلسوف وجود الشیخ الأکبر محی الدین ابن عربی [٥٦٠هـ - ١١٦٥م] عندما يرى أن قضاء الله تابع لعلمه، وأنه لم يعلم إلا ما تقرر سلفاً أتنا ستفعله، ففعل الإنسان هو الذي حدد علم الله وقضاءه، فالحرية الحقيقة هي للإنسان، والجبر.. في الحقيقة.. هو لله!.. يقول ابن عربی.. غفر الله له!:

(١) ابن رشد [مناهج الأدلة في عقائد الله] ص ٢٢٦، ٢٢٥ دراسة وتحقيق: د. محمود قاسم، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م.

«اعلم أن القضاء: حكم الله في الأشياء، وحكم الله في الأشياء على حد علمه بها وفيها.. وعلم الله في الأشياء ما أعطته المعلومات مما هي عليه في نفسها.. فما حكم القضاء على الأشياء إلا بها.. فالحاكم، في التحقيق، تابع لعين المسألة التي يحكم فيها، بما تقتضيه ذاتها، فالمحكوم عليه - [أى الإنسان] - بما هو فيه، حاكم على الحاكم - [أى الله] - أن يحكم عليه بذلك، فكل حاكم محكوم عليه بما حكم به وفيه، كان الحاكم من كان.. نحن نحكم علينا، بنا، ولكن فيه.. وما كلفك إلا بما قلت له: كلفني.. ومن أقام الدين فقد أنشأه، فالعبد هو المنشئ للدين، والحق هو الواضع للأحكام.. فالدين من فعلك.. وليس يعود على «المكنات» من «الحق» إلا ما تعطيه ذواتهم في أحوالها».<sup>(١)</sup>

هكذا بلغت الغنوصية مبلغ النزعة المادية، عندما مالت بكلفة الحرية، عن توازن الوسطية، لحساب الإنسان حتى على حساب الله!..

\* \* \*

وإذا كانت الرؤية قد وضحت لموقف الإسلام من حرية الإنسان الاجتماعية.. وكيف أنه - بعد أن جعل الحرية قرين الحياة - اتخاذ موقف العدل المتوازن الوسط، بين الحر والإطلاق، تأسيساً على أن مكانة الإنسان في هذا الكون هي مكانة الخليفة، الحر في إطار عهد الاستخلاف..

وإذا كان المقام لا يسمح باستقصاء تفاصيل هذا الموقف الإسلامي، من حرية الإنسان في المجتمع، بكل الميادين وإزاء سائر المشكلات، فإننا نكتفى بإشارات توجز هذا الموقف في عدد من أبرز هذه الميادين والمشكلات..

● ففي حرية الاعتقاد الديني.. شهير ذلك الاجماع المنعقد على انتصار الإسلام لحرية الإنسان في اختيار المعتقد الديني.. والقرآن الكريم عندما أعلن أنه ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ [البقرة: ٢٥٦] لم يكن يصدر عن مجرد «التسامح» الكريم مع الذين اختاروا غير الإسلام ديناً.. وإنما كان يعبر عن الاتساق الفلسفى في

(١) ابن عربى [فصول الحكم] ص ٨٢، ١٢١، ١٣١، ٩٦-٩٤ دراسة وتحقيق: د. أبو العلاء عقبى. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٦ م.

قضية التدين، الذى يستحيل أن يكون طريقه الإكراه.. فالإيمان -فى عرف الإسلام- تصدق بالقلب يبلغ درجة اليقين.. وبدون الاختيار الحر لا سبيل إلى تحصيل هذا اليقين بالإيمان!.. والالوهية الواحدة، هي جوهر التدين، فى عرف الإسلام.. وهو قد حدد النظر العقلى سبيلاً إلى معرفتها واليقين بوجودها؛ لأن الإيمان بالوحى والنصوص والتأثيرات تابع ومتوقف على التصديق بالرسول الذى جاء بهذه النصوص والتأثيرات، والتصديق بالرسول تابع ومتوقف على التصديق بوجود الإله الذى أرسل هذا الرسول.. فلا بد من معرفة الالوهية والإيمان بها أولاً.. وأدأة ذلك -قبل النصوص - هو العقل الذى يهتدى إلى الصانع بالنظر فى المصنوعات.. وبدون الاختيار الحر لا سبيل لإعمال النظر العقلى الذى يفتح أمام الإنسان الباب الأول لجوهر التدين بالدين.

وهذا الانتصار الإسلامى لحرية الإنسان فى الاعتقاد الدينى، لا يقف عند رفض إكراه الآخرين على التدين بالإسلام، وإنما هو يرفض، كذلك، إكراه الذات إذا عرضت لها الوساوس والشكوك التى زلزلت منها يقين الإيمان!.. فلو أن إنساناً ما تأمل، فشك فالحاد، فإنه، بمنظار الإسلام، مطالب بأن يبذل وسعه وجهده فى البحث عن سبل ودلائل الاهتداء.. فإذا بذل الوسع، دون تقصير، وجاءته المنية دون أن يمتلك يقين الإيمان، فهو -إسلامياً- من الناجين!.. لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، ويمتنع فى الإسلام تكليف ما لا يطاق.. وبعبارة الإمام محمد عبده [١٨٤٩-١٩٠٥م/١٢٦٦-١٣٢٢هـ]: فلقد «قال قاتلون من أهل السنة: إن الذى يستقصى جهده فى الوصول إلى الحق، ثم لم يصل إليه، ومات طالباً غير واقف عند الظن، فهو ناج!»<sup>(١)</sup>.

لكن.. لما كان الإيمان والتدين -وسبيلهما العقل- هما من كمال العقل.. ولما كان التدين -بتحريره الإنسان من العبودية للطاغيت، وبتحقيقه انتماء الإنسان للكون، وإنقاذه إيهام من الاغتراب -هو من أهم ركائز النظام الاجتماعى للمجتمع الإنساني الراسىد، فإن الإسلام يمنع من أصحابه مرض الشك وآفة الإلحاد من نشر عدوى مرضه

(١) (الاعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٢ ص ٢٨٢. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

وإشاعة جراثيم الأفة التي أصيب بها.. وهو هنا لا يحجر على حق ولا ينتقص من حرية، وإنما يحافظ على أساس النظام الاجتماعي من أن ينتقض إذا شاعت فيه الآفات والأمراض.. إنه لا يكره المرضى على لبس تاج الأصحاب؛ لأنه لا يريد نفاقاً ومنافقين.. فقط يريد منهم البحث عن دواء أمراضهم، قدر الطاقة، والاستمتاع عن محادة الله ورسوله وتقويض الإيمان، باعتباره الأساس الراسخ للجتماع الإنساني الرشيد.

● وفيما يتعلق بنطاق الحرية الإنسانية إزاء الأموال والثروات الاجتماعية.. رفض الإسلام قطبى التطرف: تجريد الفرد من حق التملك.. وإطلاق حريته في التملك دونما حدود.. ووقف الموقف العدل بين ظلمتين، المعتدل بين تطرفتين.. موقف الوسطية الإسلامية، الجامع لما يمكن جمعه وتاليفه من القطبين جميعاً!.. فالمال مال الله، والناس مستخلفون فيه.. ملكية الرقبة - الحقيقة - فى المال هي لله.. وللإنسان فيه ملكية المنفعة - المجازية - وظيفة اجتماعية تتبع تنميته والاستمتاع به فـى حدود عهد الاستخلاف.. وللتتبـيـه على هذا المعنى والموقف، وإشارة إلى هذه الفلسفة الإسلامية فى الأموال، كانت إضافة القرآن الكريم مصطلح «المال» - فى آياته الكريمة - إلى ضمير «الجمع» فى سبع وأربعين آية، وإلى ضمير «الفرد» فى سبع آيات!.. وكانت آياته التى تعلن: ﴿وَالأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١] .. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] .. ﴿وَسَخَرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] .. ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

فالله، سبحانه وتعالى، هو مصدر هذه الأموال جميعاً، خلقها وأودعها في الطبيعة، وهو وحده مالك الرقبة فيها، والإنسان - من حيث هو إنسان - وليس كفرد أو طبقة - مستخلف عن الله في هذه الأموال، يستثمرها بالعمل المشروع، ويحوز منها - كملكية منفعة ووظيفة اجتماعية - ما يحقق كفايته، وفق العرف ودرجة رخاء المجتمع وحظه من الغنى والثراء.. فـمـيـزـانـ العـدـلـ، المؤسس على هذه الوسطية في الحرية المالية والاقتصادية، هو العاصم للإنسان من الهبوط إلى درك «الفقر» الذي يفقد الإنسان مقومات حريته، ويسلب منه مضمون الانتماء لمجتمعه ووطنه.. وهو العاصم، أيضاً، لهذا الإنسان من الاستعلاء إلى درجة «الاستغناء»، الذي يركـزـ ثـرـوـاتـ الـأـمـةـ فـتـكونـ

﴿ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ ﴾ [الحشر: ٧]، الأمر الذي يغريهم بالطغيان بواسطة سلطان المال..  
﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (١) أَنْ رَأَهُ أَسْتَغْنِي ﴾ [العلق: ٦، ٧] .. وهذا الطغيان المالي، مثله كمثل الفقر، عدو للحرية الاجتماعية للإنسان.

هكذا توسط الإسلام بالحرية الإنسانية إزاء الأموال والثروات، كواحدة من عمد الاجتماع الإنساني.

● وإزاء القضية، التي يحسبها البعض خاصة بالمرأة في المجتمع.. قضية تحرير المرأة، ومدى الحرية التي أتاحها لها الإسلام.. فinentنا واجدون، أيضاً، النظرة المتميزة للإسلام..

إن أحداً لا ينكر أن تاريخنا الاجتماعي قد سادت في كثير من حقبه معالم «واقع» تنكر للكثير من «المثل» التي جاء بها الإسلام، بل لعل في سمو هذه «المثل» ما يجعلها عزيزة على التحقق الكامل والتطبيق الدقيق في الواقع الإنساني العيش.. لا يسبب من انقطاع علاقاتها بالواقع، وإنما لتظل دائمة وأبداً الملازمة لشوق الإنسان والباعثة لهمة والحادية لخطاه كى تجد السير على درب التقدم لتقترب من «المثال»!..

وليس سوى المكابرین من ينكرون أن المرأة المسلمة قد أصابها من المظالم أكثر مما أصاب الرجل، وحملت من القيود أثقل مما حمل الرجال!.. ولذلك فإن حريتها وتحريرها مهمة لا يجادل فيها إلا المكابرون!..

لكن الذي ننكره، بل ونستنكره، هو إغفال تميز النظرة الإسلامية لضمنون حرية المرأة، ونموج تحريرها.. ذلك أن الإسلام قد اعتمد مبدأ المساواة بين المرأة والرجل في الإنسانية، ومن ثم في التكليف، من حيث الحقوق والواجبات.. لكنه رفض ويرفض أن تكون هذه المساواة مساواة «تماثل الانداد».. فهما- المرأة والرجل - متماثلان في الإنسانية، وفي ذات الوقت متمايزان في الطبيعة من حيث الأنوثة والذكورة، لا تمايز التناقض، وإنما تمايز «التكامل» الذي هو سربقاء النوع والسعادة والارتقاء في الاجتماع الإنساني.. وإذا كان الرجل السوى لا يسعد بتساويه بالمرأة كأنثى، فإن المرأة السوية لا يمكن أن تسعد إذا كانت مساواتها بالرجل هي التدية له في الرجولة!..

ومن هنا تميزت فلسفة «التحرير الإسلامي للمرأة» بالانطلاق من تحديد مكانة المرأة بالنسبة للرجل، في المجتمع الإنساني، باعتبارهما «شقيين متكاملين ومتباينين».. فمع التساوى في الإنسانية، تتمايز الطبيعة من حيث الأنوثة والذكورة، تمايز وظيفة، لا تمايز سيطرة وخضوع!..

وحتى «القوامة» التي تحدث القرآن عنها كدرجة للرجال على النساء، فإن الفهم المستقيم يراها نوعاً من القيادة.. وإذا كان «الراعي» هو القائد، فإن الإسلام لم يحرم المرأة من القيادة والقوامة، ولكن حدد لها ميادينها، المتفقة مع طبيعتها المتميزة، كما صنع ذلك مع قوامة الرجال سواء بسواء.. ففي حديث الرسول ﷺ ، نقرأ عن «الرعاية والقيادة والقوامة» قوله، عليه السلام: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالامير الذي على الناس راع عليهم، وهو مسئول عنهم. والرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عنهم. والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسئولة عنهم.. ألا فكلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته»<sup>(١)</sup>.

فالقيادة والقوامة ليست وقفاً على الرجال دون النساء، وإنما هي مرتبطة بتميز الطبيعة وتمييز ميادينها.. لأن فلسفة «التحرير الإسلامي للمرأة» قد راعت تمايز التكوين الطبيعي - لكل من الذكر والأنثى - في إطار المساواة الإنسانية، تحقيقاً لتكاملهما، ابتعاداً سعادتهما جمِيعاً.. وهي بذلك ترفض فلسفة «التحریر» التي ترى المرأة «نداً للرجل»، حتى لقد جعلت معركتها ضده، عندما ظلت أن «تحررها» كامن في «استرجالها»، فقدانها ذلك إلى جمال القبط الذي قلدأسداً، حتى حرم من ميزات القبط دون أن يكتسب ميزات الأسود، متناسية أن فلسفة التكامل تقتضي التنوع بين المتكاملين، في إطار المساواة..

وإذا كانت فلسفة «التحریر» التي اعتمدت «النديمة» قد جعلت صورة المرأة في المجتمعات التي طبقت تلك الفلسفه هي صورة «المسترجلة الإسبرطية».. أو «الغانية الرومانسية».. أو «إعلان السلعة وسلعة الإعلان الرأسمالية».. فإن مذهب الإسلام في هذا «التحریر» يقول لنا: نعم، لتحرير المرأة.. لكن، ليس هذا هو نموذج التحرير!..

\* \* \*

---

(١) رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد.

وبعد.. فإننا نعيش على كوكب خلق الله أهله شعوباً وقبائل ليتعارفوا.. وجعل من آياته في خلقه اختلاف الألسنة والألوان.. ولو شاء سبحانه لجعلنا.. نحن البشر - أمة واحدة، ولكن، جلت حكمته، رأى وأراد الاختلاف والتمايز والتنوع مصادر للغنى والثراء.. وإذا كان الإنسان الراشد لا يجد حرجاً في أن يصافح الآخرين دون طمس بصمته ومسخ لهويته، فكذلك الأمم العريقة ذات الشرائع المتميزة والحضارات الخاصة.. عليها أن تقبل كوكبنا: «كمتدى لأمم الحضارات العريقة»، يتم فيه التفاعل بين المستقلين الراشدين، مع الاحترام للتمايز فيما هو من الخصوصيات الحضارية، والإسهام في تنمية رصيد المشترك الإنساني العام.

وبهذه الروح تكون رؤية التمييز الإسلامي في النظر إلى حرية الإنسان في المجتمع، مصدر إثراء للفكر الإنساني، لا مصدر نقض أو استعلاء!.. والله أعلم.

\* \* \*

## الفصل الخامس

### في نموذج التغيير الاجتماعي

كثيرة هي «إشكالات التغيير الاجتماعي»!..

لكن كثرتها - عند التأمل - تجعلها عائدة إلى إشكال «النموذج» الذي يتمثله ويحتذيه دعاة هذا التغيير..

فهذا النموذج، عند البعض، هو الحضارة الغربية، سواء النمط الليبرالي فيها - عند قوم - أو النمط الشمولي - عند آخرين ..

وعند البعض الآخر نجد النموذج: تطبيقات السلف .. وخاصة سلف عصر الجمود والتخلف، في الحقبة التي سيطر فيها المالك وتسلط آل عثمان!..

ونحن إذا شئنا أن نضرب الأمثال على هذه الحقيقة تجمع لدينا الكثير ..

● فمثلاً «التغيير الاجتماعي» إشكال من إشكالات!..

فالذين يهربون «ليبرالية» الحضارة الغربية قد دعوا إلى إطلاق الحرية في تكوين الأحزاب السياسية، دون أية ضوابط أو قيود، حتى ولو قامت بعض هذه الأحزاب لتدعو إلى ما يصادم ويساكس مقدسات الأمة .. ولقد عبرت عن ذلك الاتجاه كلمات قاسم أمين [١٨٦٣-١٩٠٨م / ١٢٢٦-١٢٤٥هـ] التي تقول: «إن الحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل رأى، ونشر كل مذهب، وترويج كل فكر!»!..

أما الذين يهربون «شموليّة» الحضارة الغربية فإنهم يدعون إلى حزب واحد يحتكر التفكير والتخطيط والتنفيذ!..

على حين نجد الذين خلطوا بين المواريث «التاريخية» الشرقية في الاستبداد وبين «الفكر الإسلامي» الحقيقي، قد حسبيوا الاستبداد الذي ابتدأ به أمتنا عبر تاريخها الطويل، حسيبوه «ديناً» و«وحياً» و«ثوابت» مقدسة، فأنكروا شرعية المعارضة للسلطة ومشروعيتها، ورأوا في التنظيمات السياسية «خروجاً» حديثاً يماثل مروق «الخوارج» القدماء، وفي «الأحزاب» مصطلحاً يذكرهم بمشركي غزوة «الأحزاب»!..

ولقد أغفل هؤلاء وهؤلاء أن روح الشريعة وتطبيقات الصدر الأول للإسلام تذكرى:

(أ) ضرورة الاتفاق في الدين، أي في «الأصول» التي وضعها الشارع، سبحانه وتعالى، والتي اكتملت بتمام الوحي إلى الرسول، عليه الصلاة والسلام.. أي الاتفاق على أن الإسلام هو المرجع والمعيار والإطار والحكم وفكيرية الأمة - أيديولوجيتها -.

(ب) وإباحة التعدد والاختلاف والاجتهاد في «الفروع»، ومنها كل ما يتعلق بعمaran الحياة الدنيا وشئون المجتمع والدولة في السياسة والمجتمع والاقتصاد..

فهو، إذن، النهج الوسطى، الممثل لخصوصية الحضارة الإسلامية، والرافض لتفريط «الليبرالية» وإفراط «الشمولية».. والذى يذكر اجتماع الأمة على «الأصول»، بمعنى اتفاقها على أن يكون الإسلام هو الهوية والمنطلق، مع إطلاق الحرية، في التفكير والتنظيم، بقصد الفروع والسبيل والوسائل التي يراها كل فريق الطريق الأكثر أمناً وفاعلية في تحقيق روح الشريعة وطبع الحياة الاجتماعية بطبعها.

\* \* \*

● وعلاقة الإنسان بالثروة والمال في المجتمع، أي نصيبه منها، «إشكال» آخر من إشكالات «التغيير الاجتماعي»..

فالذين تبنوا «ليبرالية» الحضارة الغربية - ومعهم أهل الجمود، فقهاء المسلمين، الذين أضفوا قداسة الدين على المظالم الاجتماعية التي زخر بها تاريخنا، مالوا جمِيعاً إلى «الليبرالية الاقتصادية»، فوقفوا مع «الفرد» و«الفردية» ضد «المجموع» و«الجماعية»..

وعلى النقيض منهم كان موقف «الشموليين»، الذين تبنوا «شمولية» الغرب، فدعوا إلى استبداد «الدولة» بكل مصادر الأرزاق، حتى وإن أدى ذلك إلى إخماد روح المنافسة ودوارف التفوق وحواجز الإبداع لدى الأفراد..

لكن إسلامنا وروح شريعتنا وفلسفة الأموال التي حفظتها لنا مواريثتنا الأولى.. جميعها ترفض هذا الاستقطاب، وتزكي الخيار الوسط، الرافض «للواحد» الغربي، ليبراليًا كان أو شموليًا..

١- فالإنسان ليس وحده مركز الكون، حتى يكون له - فرداً في الليبرالية وطبقية في الشمولية - السلطان المطلق والحرية الكاملة في الأموال التي يسيطر عليها.. لأن الإنسان هو خليفة الله في عمارة الأرض، وجميع سلطاته وكل سلطاته مستمدة من هذه «الخلافة».. ومحكمة بروح الشريعة الإلهية..

٢- ومالك «الرقبة»، في الأموال والثروات، هو الله سبحانه.. أما حيازة الإنسان لما يحوز من المال والثروة فهي لا تعدو «ملكية المنفعة»، المحققة لغاية تنمية الثروة، المسهمة في عمارة الأرض، وإسعاد الإنسان.. الأمر الذي يجعل هذه الحيازة تدخل في «الوظيفة الاجتماعية» للأموال والثروات..

فهي، إذن، الوسطية والتوسط بين «ملكية الرقبة» المطلقة وبين «تحريم التملك وتجريمه».. أي نمط إسلامي خاص في علاقة الإنسان بالأموال والثروات..

٣- وحدود حيازة الإنسان و«ملكيته» محكومة بالقدر الذي يحقق له ولمن يعول «الكافية».. وليس الكفاف - وفق العرف والمأثور ومكانة المجتمع في سلم الغنى والرخاء..

٤- وسبيل الإنسان إلى هذه الحيازة هي «العمل» النافع، إذا كان قادراً.. وإلا فسبيله إلى تحقيق «كافياته» هو التكافل الاجتماعي الذي يوجب على الأمة، بواسطة الدولة، رعاية غير القادرين.

إن الله هو خالق الأموال والثروات.. ومالكها الحقيقي.. وهو قد وضعها وسخرها جميعاً للإنسان، من حيث هو إنسان مستخلف عن الله.. ﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا﴾

للأنام» [الرحمن: ١] .. «وَنَفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ» [النور: ٢٣] .. ومصطلح «المال»، في القرآن، تارة يضاف لله، سبحانه: «وَأَتُوهُم مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي أَتَاكُمْ» [الحديد: ٧]. وتارة يضاف للناس.. وفي هذه الحال تجده مضافاً إلى ضمير «الجمع» في سبع وأربعين آية.. وإلى ضمير «الفرد» في سبع آيات فقط؟! الأمر الذي جعل إماماً كالشيخ محمد عبد [١٢٦٦ - ١٢٢٢ هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] يعلق على هذه الحقيقة، عندما لمح مغزاها، فيقول: «إن الله ينبه بذلك على تكافل الأمة في حقوقها ومصالحها فكانه يقول: إن مال كل واحد منكم هو مال أمتك»<sup>(١)</sup>.

فالملكيّة قائمة ومشروعه.. لكنها ملكية المنفعة، والوظيفة الاجتماعية التي يمارسها المستخلفون والوكلاء والنواب عن الله، المالك الحقيقي للثروات والأموال.. وبعبارة الزمخشري [٥٢٨ - ٥٥٢ هـ / ١٤٤٠ - ١٧٥ م] في تفسيره لقول الله، سبحانه: «آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ» [الحديد: ٧]: «إن مراد الله من هذه الآية هو أن يقول للناس: إن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله، بخالقه وإن شائه لها، وإنما موقلكم إياها، وخوّلكم الاستمتاع بها، وجعلكم خلفاء في التصرف فيها، فليست هي أموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب..»<sup>(٢)</sup>.

٥ - وما زاد عن القدر الذي يحقق «كفاية» الإنسان ومن يعول واجب الإنفاق في سبيل الله، أي المصالح العامة، المحققة تكافل الأمة وقوتها ومنتها.. فما زاد عن هذه «الكافية» هو «عفو» و«فضل» يجب إنفاقه: «وَيَسَّأُلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ» [البقرة: ٢١٩] .. فالعفو - بإجماع أئمة التفسير - الذي يحكى القرطبي [٦٧١ - ١٢٧٣ م] هو «ما فضل عن العيال.. فالمعنى: أنفقوا ما فضل عن حوايجكم، ولم تؤذوا فيه أنفسكم فتكونونوا عالة..»<sup>(٣)</sup>.

(١) الأعمال الكاملة ج ٥ ص ٢٠١.

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٤٣٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ج ٣ ص ٦١.

وهذا الزائد عن إشباع الحاجات هو «الكنز»، الذي ستكتوى به جبار الذين يستبدون به وجنوبهم وظهورهم يوم القيمة: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الْذَّهَبَ وَالْفَضْلَةَ وَلَا يَنْفُقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرُهُمْ بِعِذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٢٤] يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكتوى بها جبارهم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزنتم لأنفسكم فذوقوا ما كنزنتم تكتزنون﴾ [التوبه: ٣٤، ٣٥].

ذلك أن حيازة ما زاد عن «الكافية» التي تشبع الحاجات يركز الثروة في يد القلة فتكون ﴿دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ﴾ [الحشر: ٧].. الأمر الذي يخل بالتوزن في صفوف الأمة.. «فَمَا جَاءَ فَقِيرٌ إِلَّا بِمَا مَنَعَهُ غُنْيٌ».. كما يقول على بن أبي طالب.. وهذا الخلل هو السبب في تسلح القلة المستغنية بالطغيان الذي يحقق الكنز واحتكار الثروات ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِيَطْغَى﴾ [٦] أَنْ رَأَهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦، ٧]!.

فالمال مال الله.. والناس مستخلفون فيه.. لكل منه ما يكفيه.. بواسطة العمل الذي يؤديه..

إنه.. كما يقول الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز [٦١ هـ - ١٠١ م - ٧٢٠ م]:  
«نهر أعظم، والناس شربهم فيه سواء..!».

\* \* \*

وبعد..

إذا جاز لنا أن نستخلص من هذه القضايا التي عرضت لها هذه السطور، والتي تمثل بعضاً من «إشكالات التغيير الاجتماعي» في حياتنا الفكرية والعملية.. إذا جاز لنا أن نستخلص منها خاتمة لهذا الحديث، فإن هذه الخاتمة تقول:

إن «إشكالات التغيير الاجتماعي» في حياتنا مردها إلى الخطرين اللذين اقتحما على أمتنا حياتها وفكريتها:

(أ) الوافد الغربي، المناقض لما تميزت به حضارتنا من سمات..

(ب) والخلاف الموروث عن عصر الركود والترابع والانحطاط الحضاري، الذي عاشته أمتنا تحت سلط الماليك وسلطان العثمانيين..

وأن العودة للمنابع النقيّة، وتمثل روح الشريعة، وعقد القرآن بينها وبين الواقع  
المتطور بواسطة الاجتهاد المستنير والمسترشد بالعقلانية الإسلامية.. هو السبيل  
لإسلامة الواقع، بأسلمة «التغيير الاجتماعي».. وبذلك تنتفي من حقله جميع الإشكالات.  
والله أعلم!

\* \* \*

## الفصل السادس

# في أولوية العمل الخيري

لقد منَّ الله، سبحانه وتعالى، على الأمة الإسلامية بأن جعل شريعتها خاتمة شرائع الله إلى الناس، كما جعلها الشريعة المحققة لعمان الدنيا وسعادة الآخرة.. فكان العمل الصالح، في كل ميادين العمران الإنساني هو الأمانة التي حملها الإنسان عندما استخلفه الله في هذه الحياة.

ففي القرآن الكريم يقترب العمل بالإيمان، بل إن العمل الصالح هو الترجمان الحقيقى عن صحيح الإيمان.. وإذا كان الله، سبحانه وتعالى، قد جعل صالح الأعمال الفريضة الإلهية على سائر الرسل، عبر تاريخ الرسالات ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُل كُلُّوا مِنَ الطَّيَّبَاتِ وَأَعْمِلُوا صَالِحًا إِنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلَيْمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].. فلقد دعا أمير محمد عليه السلام إلى المسارعة والمسابقة والاستباق على طريق الخيرات ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبَّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلُقُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

وإذا كان عصرنا يشهد - بحمد الله - بقظة إسلامية كبيرة، تعود فيها جموع الأمة إلى الالتزام بحدود الحلال والحرام الديني، وتسعى إلى سيادة كامل الإسلام على كامل الحياة الإسلامية.. فإن العمل الخيري، الذي يتتسابق الكثيرون على طريقه - مرضاته لله، وطلبًا لثوابه - هو واحد من أبرز وأعظم مظاهر البقظة الإسلامية المعاصرة ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلِيَتَافِسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] حتى لقد برزت التساؤلات، لا عن

قلة العمل الخيري والفقر فيه، وإنما عن ترتيب الأولويات حتى تتناسب مع ترتيب وأولويات احتياجات المسلمين.. إذ لا يكفي اختيار الصالح من الأعمال على الطالع منها، وإنما تجب مراعاة مراتب الأعمال الصالحة وترتيب الأولويات بينها، حتى لا تكون هناك مشروعات كثيرة لا حاجة إلى كثرتها، وافتقار إلى إنجازات في ميادين نحن فقراء فيها.

إذا كان الله، سبحانه وتعالى، قد استخلف الإنسان لعمارة الأرض واستعمارها **﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمِرُكُمْ فِيهَا﴾** [هود: ٦١] فلقد كرم سبحانه الإنسان، وجعله محور هذا العمران، بل وسخر له ما في السموات والأرض **﴿وَلَقَدْ كَرَمْنَا بْنَ آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيَّابَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ خَلْقِنَا تَفْضِيلًا﴾** [الإسراء: ٧٠] .. **﴿أَلَمْ تَرُوا أَنَّ اللَّهَ سَخَرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً ظَاهِرَةً وَبِاطِنَةً﴾** [لقمان: ٢٠].

فالإنسان هو خليفة الله، سبحانه وتعالى، في الأرض، وإلى سعادته وتيسير حياته يجب أن تتوجه جهود العمل الخيري وإمكانات العطاء والإحسان..

وهنا يبرز التساؤل عن منهج الإسلام في ترتيب الأولويات في هذا الميدان.. ولعل مما زاد في إلحاح هذا التساؤل هو توجيه جماهير غفيرة من المسلمين - وخاصة في السنوات الأخيرة - إلى بناء المساجد، أكثر من غيرها وقبل غيرها من مشاريع الخير وميادين الإنفاق.. وإلى تكرار الحج والعمرمة.. الأمر الذي زاد من إلحاح التساؤل عن منهج الإسلام في ترتيب الصالح من الأعمال..

\* \* \*

● إن الإيمان خير كله، بل هو المدخل إلى الدين، وبدونه لا تقبل الأعمال حتى ولو كانت من الصالحات.. ومع ذلك، فإن الإيمان شعب تتفاوت في المراتب والأهمية، ومن ثم في الأولويات.. ونحن نتعلم ذلك من حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: «الإيمان بضع وسبعين شعبة، أرفعها قول: لا إله إلا الله، وأدنىها إماتة الأنبياء عن الطريق.. والحياة شعبة من الإيمان»<sup>(١)</sup>.

(١) رواه أبو داود والتسلاني وأبي ماجه.

● والأمر الذى لا شك فيه هو أن المساجد هي بيوت الله فى الأرض ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تُدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].. وهى عنوان إسلام الأمة، من ماذنها يرتفع التعظيم لله والشهادة بالإيمان والإسلام آناء الليل وأطراف النهار، حتى لكانها «أجهزة الإرسال» الإسلامية تبث إيمان الأمة من الأرض إلى السماء.

والامر الذى لا شك فيه كذلك، هو أن فضل المساجد إنما يقاس بمدى تحقيقها المقاصد الاستخلاف الإلهي للإنسان في عمران الدنيا صالحًا يحقق للإنسان السعادة والنعيم في يوم الدين.

ولقد من الله، سبحانه وتعالى، على أمّة محمد ﷺ - ضمن ما من عليها من خصوصيات - عندما لم يجعل بناء المساجد شرطًا لا يعبد الله في سواها، فاختص رسوله وأمته بأن جعل لهم الأرض كلها مسجداً وطهوراً.. فحدثنا رسول الله ﷺ عن العطايا الإلهية الخمسة التي أعطيها، ولم يعطهن أحد قبله.. ومنها: «وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»<sup>(١)</sup>.

● بل إن الكعبة، التي هي المحور والمقصد الذي تهوى إليه أفئدة المؤمنين على مر الزمان وعبر البقاء، وتتوجهه إليها القلوب والأبصار آناء الليل وأطراف النهار، تحدث رسول الله ﷺ ، عن أن حرمة الإنسان عند الله أعظم من حرمتها.. فعن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: «رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك.. ما أعظمك وأعظم حرمتك.. والذى نفس محمد بيده الحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه، وإن نظن به إلا خيراً»<sup>(٢)</sup>.

● بل وحتى البيت الحرام، الذي هو أول بيت وضع للناس في الأرض، فكان أول مكان عبد الإنسان فيه الله.. تحدث القرآن الكريم عن فضل الجهاد على عمارةه وسقاية الحجيج فيه ﴿أَجَعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجَ وَعَمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامَ كَمَنْ أَمْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُنَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٣)</sup> الذين آمنوا

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذى والنسائى وأبو داود والدارمى وابن ماجه والإمام أحمد.

(٢) رواه ابن ماجه.

وَهَاجَرُوا وَجَاهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرْجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢) يُشَرِّهِمْ رَبِّهِمْ بِرَحْمَةِ مِنْهُ وَرِضْوَانِ وَجَنَّاتِ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقْرِنٌ» [التوبية: ٢٠، ١٩]. فمن جمع إلى الإيمان بالله واليوم الآخر الجهاد في سبيله بالمال والنفس، أعظم درجة عند الله من الذين جمعوا إلى الإيمان سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام. (١).

إنها جميعاً أعمال صالحة، لكن مراتبها، ومن ثم درجاتها ومقادير الثواب عليها، تتفاوت بمكانتها في سلم الأولويات اللازم لتحقيق عزة الأمة وإنجاز العمران الإسلامي الذي استخلف الله فيه الإنسان.. ولقد حدثنا رسول الله ﷺ عن أحد الأعمال إلى الله، فقال: «أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله عزوجل: سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضى عنه ديناً، أو تطرد عنهم جوعاً، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلى من أن اعتكف في المسجد شهراً».

فالله سبحانه وتعالى، يحب كل المؤمنين، لكن أحبهم إليه هو من يضع العطاء - أي عطاء - في الأذى للناس.. والله يحب كل الأعمال الصالحة، لكن أحبها إليه - وأكثرها ثواباً - عنده - ما أسممت في إدخال السرور على الناس، وكشف الكربلات عنهم، وإزالة الأضرار، وقضاء الحاجات، وتيسير سبل الحياة الكريمة لعامة الناس.. «فالخلق عباد الله، وأحب الخلق إلى الله من أحسن إلى عياله» (٢).

فيقدر ما يكون توظيف العمل الخيري في تيسير حاجات الناس.. وبقدر ما يكون من عموم ثمراته لأكبر عدد من الناس وبقدر ما تراعي في ذلك الأولويات - الأهم فالله، فالاقل أهمية - يقدر ما يكون أحب إلى الله، وأجذل في الثواب عند الله.

\* \* \*

ذلك أن الإسلام قد تميز عن غيره بأنه «دين» لا يقوم بغير «دنيا»، وشريعة لا تكتمل إلا في مجتمع ووطن ونظام و عمران.. فالكثير من قرائضه الكفائية والاجتماعية لا تقام إذا نحن اكتفينا بالمساجد والمحاريب.. فالعلم بالإسلام يقتضي ويستوجب تحصيل

(١) القرطبي (الجامع لاحكام القرآن) ج ٨ ص ٩١ - ٩٣ طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحاجات، والطبراني عن ابن عمر وحسنه في صحيح الجامع الصفيري ١٧٦.

العلم المدنى والشرعى.. وفرضية على الأمة الإسلامية إقامة مؤسسات هذا العلم، التى بدونها لا تكتمل إقامة الدين.. والمسلمون الأوائل أقاموا مؤسسات العلم - دار الأرقام بن أبي الأرقام - قبل المساجد؛ لأن العبادة التى تعمر بها المساجد متوقفة على مؤسسات المعارف والعلم والتعليم.. ومجالس العلم، فى الإسلام مقدمة ومفضلة على مجالس الذكر وشعائر العبادات..

وإذا كنا مكلفين بإقامة الدين (أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَنْفِرُوا فِيهِ) [الشورى: ٣] فإن إقامة كامل الإسلام لا تتأتى إلا فى مجتمع مستكملاً لشروط العمran، المادية منها والروحية والأدبية.. بل إن إقامة الشعائر والمناسك والعبادات على النحو الأمثل، وفى حضور قلبى يجعلها خالصة لله، لا يتتأتى إلا إذا انتظمت شئون الدنيا، وتحققت شروط الأمان المادى والمعنوى للعبادين العاكفين الراكعين الساجدين، وذلك حتى يتمكنا من إفراد المعبد بالعبادة، واستخلاص القلوب العابدة من المعوقات الدينوية التى تحول دون الحضور فى العبادات.

إن صلاة الجائع لا تصح.. وصلاة الخائف لا يتحقق فيها الحضور - فهى «أداء» للشكل، يفتقر إلى «الإقامة»، التى هي شرط العبادات - ومن المستحيل أن يمتلىء قلب المعدة الخاوية بالخشية لله، أو أن تكتسى الأجسام العارية بلباس التقوى، كما أراد الله..

\* \* \*

ولقد أدرك أئمة الإسلام وعلماء الأمة هذه الحقائق فى منهج الإسلام، الذى يرتب الأولويات فى عمل الخيرات.. فوجدنا حجة الإسلام أبو حامد الغزالى (٤٤٥هـ - ٥٥٥هـ / ١١١١م - ١٠٥٨م) يقطع بأن نظام الدين وانتظامه مترب على نظام الدنيا وانتظام شئونها، وليس العكس.. وفى ذلك كتب يقول: «إن نظام الدين لا يصلح إلا بنظام الدنيا، فنظام الدين، بالتعرف والعبادة، لا يتوصل إليهما إلا بصحة الدين، وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات، من: الكسوة، والمسكن، والأقوات، والأمن.. فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق هذه المهمات الضرورية.. إن نظام الدنيا شرط لنظام الدين<sup>(١)</sup>.. فالعمل

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٣٥ طبعة صبيح بدون تاريخ.

لتوفير ما تنتظم به شئون الدنيا، ويرتفع به ضيق الحياة وحرجها، مقدم على غيره؛  
لأنه هو المقدمة والشرط لإقامة الدين، بما فيه من معارف وعبادات.

ولذلك، كان الغزالى يعيّب على أهل زمانه وينكر عليهم اهتمامهم بالعلوم الشرعية،  
وإهمالهم العلوم العملية والمدنية - فال عمران الدينوى - المادى منه والأدبى - هو الميسر  
لإقامة الدين .. بل إن عبادتنا لله، سبحانه وتعالى، إنما هي شكر له على النعم التى أنعم  
عليها بها فى هذا العمران ! ..

كذلك، وجدنا العابد الزايد المجاهد عبد الله بن المبارك (١١٨١-٥٧٣٦م) -  
٧٩٧م) يفضل الجهاد بالسنان فى ميادين القتال على التنسك والعبادة فى الحرمين  
الشريفين .. ويعلى من مقام دماء المجاهدين فى ساحات الوجى على دموع العابدين  
والعاكفين فى المغارب .. ويصوغ ذلك شعرًا يقول فيه:

يا عابد الحرمين لو أبصرتـا  
لعلـتـا أنـكـ فىـ العـبـادـةـ تـلـعـبـ  
فـتـحـورـنـاـ بـدـمـائـنـاـ تـخـضـبـ  
مـنـ كـانـ يـخـضـبـ خـدـهـ بـدـمـوعـهـ

\* \* \*

ولقد صاغ العقل المسلم - فى علم أصول الفقه - هذا المنهاج الإسلامى نظاماً فى  
ترتيب أولويات الأعمال، وفق ما تحققه هذه الأعمال فى البناء العمرانى للمجتمع  
الإسلامى ..

فمقاصد الشريعة لم تقف عند حفظ الدين .. وإنما كان حفظ الدين واحداً من  
مقاصدها الخمسة: حفظ الدين .. والنفس .. والعقل .. والنسل .. والمال ..

وفى تحقيق العمران الإسلامى، هناك ترتيب لأولويات الأعمال، بحسب أولويات  
الاحتياجات .. فهناك الضرورات، التى لا تستقيم الحياة بدونها؛ لأن فقدتها يخل  
بمصالح الدنيا والدين .. ولذلك فالاعمال الالزمه لتحقيق هذه الضرورات مقدمة على  
غيرها من الأعمال ..

وبعد الضرورات تأتى الحاجيات، والتى يؤدى وجودها إلى رفع الضيق والحرج والمشقة  
عن حياة الناس .. و العمل لتوفير الحاجيات يلى فى الترتيب العمل لتوفير الضرورات ..

وبعد الحاجيات، تأتي التحسينات، التي توفر الكماليات ومحاسن العادات<sup>(١)</sup>.

فمقاصد الشريعة متعددة، والعمل لتحقيقها محكم بمنهاج في الأولويات وترتيب الأعمال..

بل إننا إذا نظرنا إلى حفظ الدين، كمقصد من مقاصد الشريعة، وجدناه لا يتحقق إلا إذا تم حفظ النفس وحفظ العقل، ذلك أن الإنسان العاقل هو الذي يقيم الدين، وبدونه أى بدون حفظ النفس.. بتوفير احتياجاتها المادية والمعنوية.. وحفظ العقل.. بتوفير احتياجاته العلمية الثقافية.. لا يأتي حفظ الدين، فالنفس العاقلة هي القائمة بتكاليف حفظ الدين.

فكمما تعددت مقاصد الشريعة الإسلامية، كذلك تعددت وتفاوتت المراتب في الأعمال المحققة لهذه المقاصد المتعددة.

ففي المقدمة، تأتي الأعمال التي لابد منها لتحقيق الضروريات الازمة لإقامة حياة الإنسان.. والتي بدونها لا تقوم مصالح الدين والدنيا.. فتنعدم مصالح الدنيا بفساد المصالح العامة للناس، ويغدو نعيم الآخرة، ويحل الخسران المبين.

وبعد الضروريات تأتي الأعمال المحققة للحجاجيات، أى التي ترفع الحرج والمشقة عن حياة الإنسان.

وبعد الحاجيات تأتي الأعمال المحققة للتحسينات، أى الكماليات التي تزين أمور المعاش، وترفع حياة الإنسان، وتزيد من مكارم الأخلاق.

\* \* \*

على هذا النحو أقام الإسلام نظاماً كاملاً ومتسقاً في أولويات الأعمال.

بدءاً من ترتيب شعب الإيمان.. وانتهاء بمراتب الأعمال المحققة لنظام الحضارة وال عمران.. ومروراً بتقديم حرمة الإنسان المؤمن على حرمة الكعبة.. وأولوية الجهاد - بميادينه المختلفة - على سقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام.. وأولوية نظام وانتظام العمران الدنيوي؛ لأنه الأساس لنظام وانتظام الدين ..

(١) الشاطبي (الموافقات) ج ٢ ص ٤ - ٦ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة صبيح القاهرة.

وإذا كانت الأرض كلها قد جعلها الله، سبحانه وتعالى، لامة محمد ﷺ مسجداً طهوراً.. فإن على العقل المسلم والضمير المؤمن والقلوب الساعية إلى الاستباق على طريق العمل الخيري، أن تنظر إلى الضرورات الاجتماعية للإنسان المسلم المعاصر، وفق المنهاج الإسلامي في ترتيب الأولويات.

فحيثما يكن هناك مسجد يسع صلاة الجماعة وال الجمعة، في قرية من القرى أو حتى من الأحياء، فإن الجهود والأموال والإمكانات، وكل مصادر الأعمال الخيرية يجب أن تصرف إلى تحقيق وتحصيل وإقامة الأولى فالأولى من الأعمال والمشروعات التي تيسر الحياة الكريمة للناس، بإقامة ما لا بد منه لحفظ الصحة وتوفير الرزق، وتحصيل العلم، ونشر الوعي الإسلامي الذي يصحح تصورات المسلم عن دينه ودنياه..

ذلك أن ترتيب الأولويات هو منهاج إسلامي أصيل، في ديننا الحنيف، الذي لا سبيل إلى إقامته إلا بانتظام الدنيا التي نقيم فيها هذا الدين.

\* \* \*

## الفصل السابع

### في السياسة الإسلامية

هاتان الكلمتان - [الإسلام والسياسة] - تحملان علامات استفهام عن علاقة «الإسلام» بـ«السياسة».

وهذا الاستفهام والتساؤل شائع في الفكر الحديث والمعاصر، بل ومنذ ما قبل العصر الحديث..

لكن تحديد حقيقة علاقة الإسلام بالسياسة، يقتضى - أولاً - التعريف بمصطلحات هذا العنوان.

● **فالإسلام:** هو الطاعة الوعية - أى المؤسسة على المعرفة - من الإنسان المخلوق للإله الخالق الواحد، وذلك بعبادته - سبحانه - على النحو الذي أوحى به في شريعته السماوية إلى رسوله محمد بن عبد الله - عليه وعليه سائر الأنبياء والرسل الصلاة والسلام -.

فهو إيمان وتصديق قلبي، يبلغ درجة اليقين، بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وطاعة لله تفصح عن هذا الإيمان، وتضعه في الممارسة والتطبيق.

● **أما السياسة:** فهى التدابير المدنية التي يدير بها الإنسان حياته الدنيا، سواء أكانت سياسة فردية، يدير بها الفرد عالمه الخاص.. أم سياسة منزلية، تدير بها الأسرة حياتها الأسرية.. أم سياسة اجتماعية، تدير بها الأمة والدولة شئون العمران الاجتماعي - في الاقتصاد والاجتماع والتعليم والحكم والإدارة.. إلخ... أم كانت سياسة دولية، تدير بها الدول والأمم والحضارات - بالقانون الدولي والمنظمات الدولية

والإقليمية - العلاقات الدولية، التي تحافظ على سلام العالم، وأمنه، ورخائه، وصحة بيئته، وفض المنازعات التي تنشب بين الدول والحكومات.

وإذا كان العنوان - [الإسلام والسياسة] - يحمل التساؤل والاستفهام عن العلاقة بين «الدين» - الذي هو وحي الله، وتوزيل سماوي وتشريع رباني - وبين «السياسة» - التي هي تدابير مدنية بشرية .. فإن الإجابة على هذا التساؤل تتميز في الإسلام عنها في أساق فكرية وفلسفات إنسانية وشرايع دينية غير دين الإسلام.

● **ففي الفلسفة اليونانية - مثلاً** : وخاصة في تصور «أرسطو» [٢٨٤ ق.م - ٣٢٢ ق.م] لعلاقة الذات الإلهية بالعالم، كان الله - في ذلك التصور - مجرد خالق لهذا العالم، وقف نطاق عمله عند الخلق فقط .. فهو قد خلق العالم، وأودع فيه الأسباب الذاتية التي تدبّره وتسوسه، دون نecessity شرعة سماوية أو دين الله، أو قوة فوقية ما ورائي - من فوق الطبيعة ومن ورائها .. فالعالم مكتف ذاته، والمجتمع البشري مكتف ذاته .. ومثل الذات الإلهية، في علاقتها بتدبير وسياسة العمران الإنساني، كمثل صانع الساعة، صنعتها، وأودع فيها أسباب تدبّرها وسياستها .. فلا مدخل للدين السماوي في السياسة الأرضية، بهذا التصور الأرسطي ..

● **وفي الوثنية الجاهلية** - عند العرب .. قبل الإسلام - كان التصور لعلاقة الخالق بالمخلوقات قريباً من هذا التصور الأرسطي ..

فالوثنيون كانوا يؤمّنون بالله خالقاً لكوّن والعالم .. لكنهم كانوا يقفون بـ نطاق فعله عند حدود الخلق، وذلك عندما جعلوا تدبّر حياتهم الدنيا وسياستها للأصنام - التي جعلوها شركاء لله في السياسة والتدبّر - فله الخلق .. وللأصنام السياسة والتدبّر .. والقرآن الكريم ينصحهم عندما يتحدث عن إيمانهم بالله خالقاً : ﴿وَلَئِن سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

لكنه يعيّب عليهم شركهم بالله، عندما جعلوا سياسة الدنيا وتدبّر الاجتماع الإنساني للأصنام والأوثان - التي كانوا يلتجئون إليها ويستشيرونها في تدبّر: السفر والإقامة .. وال الحرب والسلام .. والبيع والشراء .. والمحالفة والمناذدة .. والزواج والطلاق ..

والحب والكره.. إلخ.. إلخ.. **﴿فَلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِي اللَّهُ بِضُرٍّ هُلْ هُنْ كَاشِفَاتُ ضُرَّهُ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هُلْ هُنْ مُمْسَكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾** [الزمر: ٢٨] .. **﴿وَجَعَلُوا اللَّهَ مِمَّا ذَرَّا مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لَهُ بِرْ عُمُّهُمْ وَهَذَا لَشْرُ كَائِنِهِمْ فَلَا يَصِلُّ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُّ إِلَى شَرْ كَائِنِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾** [الأنعام: ١٣٦].

فالوثنيون قد عزلوا السماء عن الأرض، عندما أمنوا بالله خالقاً للكون والعالم، ثم وقفوا بفعله عند الخلق، جاعلين تدبير الحياة الدنيا للأصنام والأوثان.

● **وفي النصرانية:** كان هناك شبه من هذا التصور، الذي يعزل التدبير الإلهي عن سياسة العمران الإنساني، وخاصة في الحكم والإدارة وسياسة الدول والمجتمعات.. صحيح أن النصرانية - لأنها دين سماوي - قد تميزت عن الفلسفة الارسطية، واحتلت عن التصورات الوثنية، عندما جعلت الخالق للكون شارعاً للقيم والأخلاق، وشارعاً للعبادات.. لكنها عندما فصلت بين «ما لقيصر» - أي الدولة وسياسة المجتمع - وبين «مالله» - أي الدين - قد جعلت مرجعية السياسة في الدول والمجتمع - إدارة واقتصاداً - واجتماعاً ونظمـاً - للإنسان وحده، فكان رضاها بأية سلطة وأية دولة وأية سياسة لوناً من اللوان العزل الجزئي للسماء عن الأرض، وللدين عن تدبير العمران الإنساني وسياسة المجتمعات.. لقد وقفت بالقيم الدينية عند علاقة الفرد المخلوق بالله الخالق.. وتركـت ما لقيصر لقيصر، دون أن تجعل قيصر وما له!..

وهذا هو الذي جعل تدخل اللاهوت النصراني والكنيسة الكاثوليكية في «السلطة الزمنية» - بأوروبا العصور الوسطى - شذوذًا عن حقيقة الموقف النصراني - لأن ذلك التدخل قد مثل تجاوزاً من الكنيسة لرسالتها - التي هي روحية خالصة -، وإطار عملها - الذي هو مملكة السماء -، ولجماع مقاصدها - التي هي خلاص الروح -، فتجاوزـت ذلك، عندما اغتصبت السلطة الزمنية - سلطة قيصر - التي دعا الإنجيل إلى تحريرها وفصلها عن «مالله».

● ولقد جاء التصور العلماني: إبان النهضة الأوروبية الحديثة - رد فعل على تجاوزـات الكنيسة الكاثوليكية لرسالتها.. فرـدتـها العلمانية إلى حدود «مالله» - خلاص

الروح.. بالمعنى الفردي - وفصلت وعزلت عنه «مالقيصر» - الدولة والسياسة وتدبير المجتمع وإدارة العمران - منطلقة في ذلك الفصل من التصور الارسطي لنطاق عمل الذات الإلهية - مجرد الخلق، دون التدبير والسياسة للدولة والعمaran - فأصبحت السياسة - في التصورات العلمانية : شأنًا دنيوياً خالصاً، لا علاقة لها بالدين، وتدبيراً إنسانياً - بالعقل والتجربة وحدهما - غير محكوم بشرعية سماوية؛ لأن العالم - في فلسفة الأنوار الوضعية، التي انتطلقت منها العلمانية.. كما هو في التصور الارسطي - مكتف بذاته، غير محتاج إلى شريعة سماوية تدبر شئونه.. وكذلك الإنسان - ومن ثم الدولة والمجتمع - مكتفي بذاتها يتم تدبيرها وسياستها بالعقل الإنساني والتجربة الإنسانية، دونما حاجة إلى تدخل الدين في هذه السياسة وذلك التدبير.. ولذلك، يعبر عن العلمانية أحياناً بمصطلح : «الدنوية» أو مرجعية الدنيا لا الدين وأحياناً بمصطلح : «الإنسانية». أو اكتفاء الإنسان - في سياسة دنياه - بعقله وتجربته عن شريعة السماء..

فالعلمانية قد فكت الارتباط وفصمت العرى بين السماء والأرض، وحررت السياسة المدنية من القيم الدينية.. ولذلك تعايشت كنائس المجتمعات العلمانية مع «السياسة المكيافيلية»، التي جعلت الغايات مبررة للوسائل، بصرف النظر عن حظ هذه الوسائل من أخلاقيات الدين وقيمه ومثله.. كما جعلت «القوة» - وليس «العدل» - المقصود الذي تتغياه آية سياسة لامية دولة من الدول!..

● أمّا في الإسلام : فإن العلاقة بينه - وهو دين إلهي - وبين السياسة - كتدبير للدولة والدنيا والمجتمع والعمaran - هي علاقة متميزة عن كل هذه التصورات، التي رأيناها في الأنساق الفكرية والفلسفية والدينية غير الإسلامية..

فهناك علاقة بين «الإسلام» وبين «السياسة»، لكنها علاقة وسط بين «الاتحاد والامتزاج والاندماج» وبين «الفصل والقطيعة والافتراق».

فالتصور الإسلامي لنطاق عمل الذات الإلهية، لا يقف فقط عند حدود عمل الخلق، وإنما لله أيضًا الرعاية والتدبير لكل عوالم المخلوقات، ومنها الاجتماع البشري والعمaran الإنساني.. وفي القرآن الكريم حديث عن هذا التصور الإسلامي : ﴿أَلَا لَهُ

**الْخَلُقُ وَالْأَمْرُ تَبَارِكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴿الاعراف: ٥٤﴾ . فهو - سبحانه - له الامر والتدبير مع الخلق.. وله - سبحانه - الهدایة والتسلید والرعاية والإرشاد، مع الخلق أيضاً: **﴿قَالَ فَمَنْ رِبْكُمَا يَا مُوسَى﴾** ﴿٤﴾ **﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَنَا كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾**

[طه: ٤٩، ٥٠]

وللإنسان - في التصور الإسلامي - حرية وإرادة وقدرة واستطاعة وسلطة و فعل في سياسة حياته وتنظيم مجتمعه وتدبير عالمه ودنياه.. ولكنها حرية وإرادة وقدرة وسلطة الخليفة لله، المحكمة حرفيته بعقد وعهد الاستخلاف، الذي هو الشريعة الإلهية: **﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾** [آل عمران: ٢٠] .. **﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾** [الحج: ٧].

فالشرعية الإلهية مدخل في السياسة، لا يلغى حرية الإنسان وسلطاته وسلطاته في تدبير المجتمع وسياسته، ولكنه يضبط هذه الحرية وهذا السلطان بحدود الحلال والحرام الديني، الذين جاءت بهما قواعد ومبادئ وأحكام الشريعة، وروحها ومقاصدها وفلاستيتها في التشريع.

فلا الشريعة تلغى سلطة الإنسان وحرفيته في السياسة والتدبير للعمان الدينوى .. ولا هذه السلطة الإنسانية والحرية البشرية في سياسة الدولة والمجتمع متحررة تماماً من إطار الشريعة الإلهية وحدود الله وأحكام الدين .. فالإنسان - لأنَّه خليفة لله - هو سيد في هذا الكون، محكومة سيادته وسلطاته بشرعية عقد وعهد الاستخلاف الإلهي له .. فهو حر في سياسة المجتمع والدولة، حرية لا تخرج به عن إطار حدود الوكيل والنائب وال الخليفة .. إنَّه سيد في الكون، لا سيد الكون .. إنَّه عبد لله وحده، وسيد لكل شيء بعده !! والله - سبحانه - قد سخر له كل قوى الطبيعة، لكنه هو وكل قوى الطبيعة لله، سبحانه وتعالى: **﴿فَلَمَّا أَنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [آل عمران: ١٦٢] لا شريك له وبذلك أمرتُ وأنا أولُ الْمُسْلِمِينَ [آل عمران: ١٦٣].

ولأن الدين هو «وضع الهى ثابت» .. بينما «السياسة» أغلبها تدابير متغيرة ومتطرفة بحكم ارتباطها بالواقع الحياتى المتغير والمتطور .. وقفَت الشريعة الإسلامية - في

سياسة وتدبير المعاملات الدنيوية المتغيرة والمتطرفة - عند المبادئ والقواعد والمقاصد وفلسفة التشريع .. تاركة للعقل الإنساني والتجربة البشرية الإبداع والاجتهداد - في فقه المعاملات - للسياسات التي توأك المتغيرات والمستجدات .. فمقاصد الشريعة وقواعدها ومبادئها وحدودها وأحكامها ثوابت .. وفقه المعاملات تدبيرات سياسية واجتماعية واقتصادية متغيرة، ومحكمة بمقاصد الشريعة وحدودها ..

فلا كل السياسة - كتدابير دنيوية - هي دين ثابت .. ولا هي منفصلة ومحايدة للدين الثابت .. ومن هنا كانت علاقة الإسلام بالسياسة هي علاقة «التمايز»، لا علاقة «الوحدة والامتزاج» أو علاقة «المغايرة والانفصال» .. فالسياسة - في التصور الإسلامي - هي: «تدابير مدنية»، يمعنى أنها تدبر اجتماع الإنسان، الذي هو «مدني» - أي «اجتماعي - بطيء» .. لكنها محكومة بالشريعة الإلهية الثابتة، ومن هنا سميـت - في الإسلام - بـ «السياسة الشرعية» - لأنها «مدنية» ذات مرجعية «دينية» .. بل لقد عرف علماء الإسلام «السياسة الشرعية» بأنها «السياسة المدنية» - ليس بمعنى أن «المدنى» هو المقابل «لليدينى» .. كما هو معناه في الفكر الوضعي الغربي - وإنما بمعنى أن «المدنى» هو «الاجتماعي» .. فالسياسة الشرعية هي: التدابير الإنسانية، التي يسوس بها الإنسان الاجتماع البشري، في إطار ثوابت الشريعة ومقاصدها ..

فلا هي علاقة «الكهانة الكنسية» - التي دمجت ومزجت السياسة بالدين، فثبتت التغييرات الدينوية بثبات الدين - ولا هي علاقة «العلمانية - الدينوية» التي فصلت السياسة عن الدين - وإنما هي السياسة الشرعية .. أي «العلاقة» و«التمايز» - في ذات الوقت - بين السياسة والإسلام.

فالسياسة لا تقف فقط عندما جاء في النصوص التي جاء بها الوحي الإلهي - في القرآن الكريم - وبيانه النبوى - في السنة النبوية - لأنها تدابير للمتغيرات والمستجدات المتطرفة دائمًا وأبدًا، بتطور وتغير الزمان والمكان والمصالح والأعراف والعادات .. ولكنها - أي السياسة - لا تغایر ولا تخالف ولا تصادم ما جاء به الوحي الإلهي والبلاغ الربانى أو السنة النبوية الصحيحة، التي هي البيان النبوى للبلاغ القرأنى.

فكل التدابير التي تحقق المصالح الشرعية المعترفة، هي سياسة شرعية، ييدعها الاجتهداد الإسلامي؛ ليتحقق بها مصالح الفرد والأسرة والأمة والدولة والمجتمع

الإنساني وال العلاقات الدولية .. وهي إسلامية بقدر ما تتحقق المصالحة والعدالة للناس، وبقدر ما تنضبط بقيم الدين الإسلامي ومقاصد الشريعة الإسلامية .. بهذا تعتبر «السياسة» جزءاً من «الشريعة»، رغم أنها إبداع إنساني لبشر فقهاء.

ولهذه العلاقة بين الإسلام وبين السياسة، تميزت السياسة الشرعية -بتميز الإسلام، كدين -عندما لم تقف مقاصدها -كما هو الحال في السياسة المنفصلة عن الدين -عند طلب الصلاح والتغافل الديني للحياة الدنيا وحدها .. وإنما كانت مقاصد هذه السياسة الإسلامية تحقيق مصالح وسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة معاً.

فالسياسة التي لا علاقة لها بالدين قد تتحقق من الغنى والوفرة والقوة والغلبة ما يحقق للإنسان والمجتمعات الرفاهية والترف والحدود القصوى في اللذات والشهوات .. تتحقق «قارونية المال» و«فرعونية القوة» .. وهنا يكون صلاحها دينوياً صرفاً، يؤدي إلى ندامة وخساران في الحياة الأخرى يوم الدين، بل وإلى ندامة وخساران في العواقب الدينوية بعيدة المدى ..

أما السياسة المحكومة تدابيرها بالمقاصد الشرعية، فهي التي تستهدف سعادة الإنسان وصلاحه في الدنيا، باعتبار هذه الدنيا مزرعة الآخرة والمقدمة المفضية إليها .. ولهذه الخصيصة، جاء في تعريف السياسة بالموسوعات والمصادر الإسلامية أنها:

«استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل والأجل، وتدبیر المعاش مع العموم على سن العدل والاستقامة»<sup>(١)</sup>.

وأنها: «ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد»<sup>(٢)</sup>.

وأنها: «السياسة الدينية النافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فهي تدبير للاجتماع الإنساني على منهاج الدين»<sup>(٣)</sup>.

(١) الكليات - لأبي اليقاء الكفوري - طبعة دمشق سنة ١٩٨٢ م.

(٢) إعلام الموقعين - لأبن القيم ج ٤ ص ٣٧٢ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م.

(٣) (المقدمة) - لأبن خلدون ص ٥٠ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ.

فهى سياسة تدبير الدنيا وفق مقاصد الدين؛ لتكون السياسة - كالعبادة - سبيلاً لرضاء الله - سبحانه وتعالى - وسعادة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة ..

وإذا كانت السياسة في «دولة الكهانة الكنسية»، قد زعموا أنها «دين خالص»، عندما ادعت «الدولة» أنها مقدسة، تحكم بالتفويض الإلهي، وبالحق الإلهي، وأن نيابتها إنما هي عن السماء.. فغدت هذه «الدولة»، سواء عندما حكم البابوات المخصوصون - بزعمهم - أو الأباطرة الذين أضفى البابوات على سلطتهم القدسية - غدت هذه «الدولة الدينية» لا تسأل عما تفعل، وفعالة لما تريده.. الأمر الذي غيب الأمة تماماً من معادلة السياسة، فوقفت هذه المعادلة عند: الله فالدولة الدينية فقط .. دون وجود للأمة وسلطانها ..

فإن الدولة العلمانية - التي هي النقيض الكامل لدولة الكهانة الدينية - قد غابت الشريعة وانتفى الدين من معادلتها .. فيها: الأمة فالدولة .. ولا مكان للدين والشريعة في معادلتها وسياستها .. أما الصيغة الإسلامية للسياسة في الدولة الإسلامية، فإنها جامعه .. فيها: سيادة الشريعة الإلهية، وخلافة الأمة لله، حال التزامها بالشريعة، وممارستها السلطات في حدود الشريعة ونيابة الدولة عن الأمة، ملتزمة - كالأمة - بياط الشريعة وحدودها، وقائمة بمافوضت لها الأمة من مهام وسلطات ..

فهي - الصيغة الإسلامية - الوحيدة الجامعه بين السماء .. والأمة .. والدولة - في السياسة الشرعية للدولة الإسلامية ..

\* \* \*

تلك هي علاقة «السياسة» بـ «الإسلام» .. وهذا هو موقف «الإسلام» من «السياسة» .. وهو موقف متميز عن مواقف الانساق الفكرية الأخرى في هذا الموضوع .. والله أعلم ..

\* \* \*

## الفصل الثامن

### في التعددية والتنوع والاختلاف

لكل دين من الأديان.. أو فلسفة من الفلسفات.. أو نسق من الأفكار، فلسفته في رؤية الكون، التي تحدد مكانة الإنسان في هذا الوجود.. وعلاقته بال الموجودات.  
وإذا كان الإسلام - ككل الديانات السماوية - يرى الله - سبحانه وتعالى - المطلق، واجب الوجود، والخالق لكل الموجودات.

فإنه يرى الإنسان خليفة لله في الأرض، حاملاً لأمانة إقامة العمران، حتى تأخذ الأرض زخرفها وزينتها.. وحتى تتهذب النفس الإنسانية وترتقي وتسعد، عندما تتوازن علاقاتها مع الغرائز والملكات والموجودات..

كذلك، يرى الإسلام في الذات الإلهية، المطلق المفارق لسائر أنواع وألوان المخلوقات.. فهو - سبحانه - ليس كمثله شيء.. وكل ما خطر على بالك، فالله ليس كذلك!

وفي موضوعنا - موضوع (التعددية.. والتنوع والاختلاف في إطار الوحدة) يرى الإسلام في هذا الوجود: إليها، انفرد وينفرد بالوحدة والوحدانية، التي لا تعرف أى لون من ألوان التعدد أو الازدواج أو التركيب.

وموجودات ومخلوقات ومحارات، تقوم جميعها على التعدد والازدواج والتركيب والتساند والتسخير والارتفاع. فالتجددية في كل الموجودات - الحية والجامدة.. الإنسانية والنباتية والحيوانية.. العلوية والسفلى.. وكذلك في عالم الأفكار والفلسفات والمذاهب والتوجهات.. وأيضاً في الألوان والأجناس والألسنة واللغات والقوميات.

كل هذه العوالم، يراها الإسلام قائمة على سنة التعددية، وقانون التنوع، وقاعدة الاختلاف.

ليس باعتبار هذه التعددية، وذلك التنوع مجرد اختيار بشري، أو حق من حقوق الإنسان، وإنما باعتبارها القانون الحاكم لوجود الموجودات.. وسنة من سنن الله فيسائر المخلوقات، لا تبديل لها ولا تحويل..

\* \* \*

ولأن الإسلام هو دين الوسطية الجامحة.. التي لا تعرف الثنائيات المتناقضة -  
ثنائيات: «الدين.. والدنيا».. أو: «الدين.. والدولة».. أو: «الدنيا.. والآخر».. أو: «الفرد..  
والمجموع» أو: «الذات.. والأخر».. أو: «الحرية.. والمسؤولية».

لأن هذه الوسطية الإسلامية الجامحة، تجمع من أطراف وأقطاب هذه الثنائيات عناصر الحق والعدل، فتؤلف منها موقفاً وسطاً جامعاً.. متوازناً.. ومتميزاً.. وجديداً فلقد التزم الإسلام - بهذه الوسطية الجامحة - في التعددية مذهبًا متميزاً، رفض فيه وبه غلوًّا الإفراط وغلوًّا التفريط.

فهو، مع التعددية في كل عوالم المخلوقات، لا يرى الواحدية والوحدة إلا في الذات الإلهية وحدها.. وهو - أيضاً - لا يطلق للتعددية العنوان، الذي يجعلها تشرذماً وقطيعة بين أجزاء الفلواهر والموجودات..

وإنما يراها: تنوعاً واختلافاً وتميزاً في إطار الوحدة الجامحة للتنوع والتمايز والاختلاف..

فالوحدة - في أي ظاهرة من الفلواهر - تعنى التعددية والتنوع والاختلاف والتمايز في إطارها.. ولا بد لهذا التنوع والاختلاف والتمايز من وشائج جامحة، وعدسة لامة، تؤلف بين التنوع، وتجمع بين المختلف، وتوجد الأرض المشتركة بين المختلفين.. المتميزين.. المتنوعين.. المتعددين..

\* \* \*

لقد خلق الله - سبحانه وتعالى - البشر جميعاً من نفس واحدة.. ثم جعل كل فرد من أفراد هذه الإنسانية عالماً قائماً بذاته.. فيه - وهو الجرم الصغير - انطوى العالم الأكبر !  
ففى إطار وحدة الإنسانية - المتحدة فى أصل الخليقة .. وفى الإنسانية .. وفى الكرامة والتكرير .. وفى الحقوق .. وفى التكليف .. وفى الحساب .. وفى الجزاء .. فى إطار هذه الوحدة، تتمايز وتتنوع هذه الإنسانية الواحدة إلى: شعوب وقبائل وأمم وأفراد .. وإلى ألوان وأجناس والستة ولغات وقوميات وحضارات .. وإلى ملل ونحل ومذاهب ودياناتٍ وفلسفاتٍ وثقافات ..

فلا غلوٌ في التعددية والتنوع، يقطعُ روابط الوحدة، ويدخلُ بها في نطاق العنصرية والتعصب، وإنكار العلاقات بالآخرين .. ولا غلوٌ في عوامل الوحدة، ينكرُ أسبابَ التنوع والتمييز والاختلاف.

\* \* \*

وبسبب من هذه الوسطية الإسلامية الجامحة، في رؤية علاقة الوحدة بالتجددية .. والواحدية بالتنوع .. والأحادية بالاختلاف .. ينكر الإسلام «نزعة المركزية المفرطة»، التي تزيدُ العالمَ نمطاً واحداً، والإنسانية قالباً واحداً، منكرة على الآخرين حق التمايز والاختلاف.

«فالمركزية الدينية».. التي تزيد العالم ديناً واحداً، يُنكرُها الإسلام، عندما يرى في تعددية الشرائع الدينية سنة من سين الله في الاجتماع الديني، لا تبديل لها ولا تحويل «لكلّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ولو شاء الله جعلكم أمّةً واحدةً ولكن ليبلوكم في ما آتاكُم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فيبيثكم بما كنتم فيه تختلفون» [المائدة: 48].  
«ولو شاء ربُّك لجعلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ» [١١٨] إلا من رحم ربِّك ولذلك خلقهم [هود: ١١٩، ١١٨].

فهو - سبحانه - قد خلقهم للتنوع والاختلاف .. لكنه يريدُ لكل الملل والشرائع والديانات وحدة جامعة لتنوعها، ورابطة ضابطة لاختلافها .. وحدة في: توحيد الخالق المعبود .. وفي الإيمان بالغيب .. وفي العمل الصالح .. فهذه هي أصول الدين الإلهي

الواحد، التي اتفقت فيها وعليها أكل الشرائع والنبوات والرسالات، من آدم.. إلى إبراهيم.. إلى موسى.. إلى عيسى.. إلى محمد - عليهم جميعاً الصلاة والسلام..

وإنكار الإسلام «للمركزية الدينية»، إيماناً منهُ بتنوع الشرائع الدينية، بتعدد أدمي الرسالات السمائية.. يعني - أيضاً - رفضه «للمركزية القانونية».. التي ت يريد العالم كله خاضعاً لمنظومة قانونية واحدة، حتى لتثير الاعتراضات، وتكتيل الاتهامات ضد فلسفات التشريع في المنظومات القانونية الأخرى، بل وتجزأ حكم القضاء التي تصدر انطلاقاً من فلسفات التشريع التي لا تنتمي إليها.

ودعاء هذه «المركزية القانونية» في دوائر السياسة والإعلام يتجلّبون أن فقهاء القانون العالميين، قد استقر رأيهم - في مؤتمراتهم العالمية - منذ عقد الثلاثينيات من القرن العشرين - على اعتماد منظومات قانونية ثلاثة.. يجرى الرجوع إليها، والاستفادة منها، والمقارنة فيما بينها.. وهي القانون الروماني .. واللاتيني .. والشريعة الإسلامية..

قدّمُوا «المركزية القانونية»، يرفضها- أيضًا- علماء القانون.

\* \* \*

والإسلام يذكر «المركزية الحضارية».. التي ت يريد العالم حضارة واحدة، وتسلك سبيل الصراع-صراع الحضارات- لقسر العالم على نمط حضاري واحد.. لأن الإسلام يريد العالم « منتدى حضارات»، متعددة.. ومتميزة.

لكنه، لا يريد للحضارات المتعددة أن تستبدل التبعية الشوفيني بالمركزية  
الحضارية القسرية.. وإنما يريد الإسلام لهذه الحضارات المتعددة أن تتفاعل و تتساند  
في كل ما هو مشترك إنساني عام..

فى العلوم الطبيعية - علوم المادة.. الدقيقة.. والمحايدة.. وفى علوم تمدن الواقع -  
التي تحقق زينة الأرض، ورخاء البشر، وسلام الإنسانية، والحفاظ على البيئة - ميادين  
واسعة للوحدة، والتفاعل، والتساند بين كل الحضارات.

وفي الثقافات والفلسفات والهويات، ومنظومات القيم، والهويات

الحضارية والقومية، ميادين للتنوع والتمايز، في إطار المشترك الإنساني العام بين مختلف الحضارات.

\* \* \*

والإسلام ينكر «مركزية العرق والجنس واللون».. التي أثرت العنصرية العرقية، حتى جعلت في العالم طبقية للألوان والأجناس، تركت آثارها الكريهة حتى في المعابد والعبادات، فضلاً عن الأندية والمساكن والمدارس والمصانع، ناهيك عن القوانين والحقوق والواجبات والامتيازات!

بل، ورأينا من يدعى أنه «من شعب الله المختار» بحكم الولادة من رحم بعثته، حتى ولو كان ابنًا غير شرعي.. بل وحتى لو كان مُلحداً!

ينكر الإسلام هذه «المركزية العرقية»، عندما تكون مركزية الجنس الأبيض.. أو الأسود.. أو الأصفر.. أو أي عرق من الأعراق.. فاختلاف الألوان -في إطار الإنسانية الواحدة.. وتساويها جميعاً- في هذا الإطار الإنساني الواحد.. هو سنة من سنن الله، وآية من آيات الخالق لكل هذه الألوان والأعراق والأجناس.. **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقُ مُخْتَلِفٍ أَسْتَكْمُ وَالْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾** [الروم: ٢٢].

\* \* \*

والإسلام ينكر «المركزية اللغوية».. التي ت يريد العالم لغة واحدة، فتنكر على الأمم والقوميات حقها في تعدد الألسنة واللغات.. بل وينكر هذه «المركزية اللغوية» في إطار الدولة الواحدة، إذا هي حرمت الأقليات اللغوية من حقها في تعلم لغاتها القومية؛ كي تحافظ على مواريثتها الثقافية..

وفي ذات الوقت، ينكر الإسلام تحول التعددية اللغوية أو الدينية إلى قطبية، تفصّم -بالشيفونية القومية أو التعصب الديني- عرى التفاعل والترابط بين الدوائر اللغوية والطوائف الدينية في الأمة الواحدة أو الدولة الواحدة.. فالامة: وحدة تضم تنوعاً في الملل والأعراق واللغات.. والوسطية الإسلامية تحمى وحدة الأمة من أن تفتت بها التمايزات اللغوية أو التعددية الدينية.. كما تحمى هذه الوسطية التنوع اللغوي والديني من أن تقهره وحدة الأمة أو الدولة.

يريد الإسلام - بمنهاجه في التعددية - للعالم الذي نعيش فيه :  
أن تُغْنِي ثقافاته المتعددة بالتجدد اللغوية - والتجددية في الموراث الثقافي  
والفكري - لأمته وقومياته .. لأن اختلاف وتعدد الألسنة واللغات هو آية من آيات الله  
في المخلوقات .

\* \* \*

والإسلام ينكر «المركزية الاقتصادية» التي تُسْخَرُ المنظمات الاقتصادية الدولية  
لصالحة حضارة الأقوياء ضد مصالح حضارات المستضعفين ..

المركزية، التي تحول فيها «عالية التجارة» إلى «اجتياح» للصناعات والتجارات  
الوطنية في الدول المستقلة حديثاً، ذات البنية الاقتصادية الضعيفة أو الهاشة .

المركزية، التي تجعل ٢٠٪ من أبناء حضارة بعينها يملكون ويستهلكون ٨٦٪ من  
ثروات العالم المعاصر .. فيتركز الغنى في كفة، ويتركز الفقر في الأخرى ! .. ويشقى  
الجميع - بالترف والتلخمة عند قوم .. وبالفاقة عند الآخرين !

وفي ذات الوقت، فإن الإسلام لا ينكر التفاوت بين البشر، في الغنى، وفي الأموال  
والثروات .. وإنما يريد أن يحكم هذا التفاوت بطار التكافل، الذي يجعل العالم بمثابة  
الجسد الواحد .. تتتنوع أعضاؤه - في الكفاءة .. والأهمية .. والحجم .. والاحتياجات - مع  
تكافلها جميعاً في تحقيق حد الكفاية لكل إنسان .

\* \* \*

والإسلام ينكر «المركزية في السلطة» .. داخل الدولة، تلك التي تفرض وحدة الرأي  
والاتجاه والموقف والاجتهاد، قاهرة الأمة على حزب واحد .. ورأي واحد .. وحاكم فرد ..  
ينكر الإسلام هذه «المركزية السلطوية»، التي تبعث «الفرعونية» من جديد .

وفي ذات الوقت، لا يريد الإسلام للتعددية - في المجتمع - غلو التشرذم والقطيعة  
والتفتت بين تيارات الأمة وطبقاتها وأحزابها ومدارسها الفكرية .. وإنما يريد: تنوع  
الاجتهادات والتنظيمات في الفروع والمتغيرات والمناهج والآليات، وذلك في إطار ثوابت  
الأمة، ومقومات المجتمع، ومكونات الهوية، ومعالم المشروع الحضاري للأمة .

\* \* \*

ولأن هذه وسطية الإسلام - الجامعة بين عناصر الحق والعدل من أقطاب الثنائيات .. وهي الوسطية التي جعلت من التعددية تنوعاً في إطار الوحدة .. وظللت الوحدة ترعى وتحتضن التمايز والاختلاف.

ولأن الإسلام ليس «اليوتوبيا» الحالة أحلام فلاسفة «المدن الفاضلة» التي عزت على التحقيق منذ أقدم العصور - وإنما هو الدين الجامع بين «المثال» للهـم، وبين «الواقعية» الساعية أبداً إلى الاقتراب من «المثال» .. فلقد أدرك الإسلام أن حياة الأمم والشعوب والمجتمعات والدول، لا بد وأن تشهد التناقضات .. وأن تمتزج فيها نوازعُ الخير والشر .. والإيجاب والسلب .. والاستعلاء والاستضعفاف .. والأثرة والإيثار .. إلخ .. إلخ ..

فكانت دعوةُ الإسلام - بوسطيته - إلى حل التناقضات بين الأفراد والطبقات والأمم والدول والحضارات بنفس منهجه المتميّز في التعددية .. فهو يرفض «الصراع» سبيلاً لحل التناقضات؛ لأن «الصراع» يفضي إلى إفناه طرف للطرف الآخر، وفي ذلك قضاء على التعددية، عندما ينفرد المنتصر - الذي صرخ خصمه - بالساحة والميدان، ويرث كل الإمكانيات.

والإسلام - أيضاً - عندما يرفض الصراع، لا يرضي بالسكون والاستسلام؛ لأنَّه يؤدِّي إلى تقليد الضعفاء للأقوياء، وتشبه المستضعفين بالمستكبرين، وتبعية المهزومين للمنتصررين .. وهو يفضي - أيضاً - إلى زوال التنوع وذبول التعددية.

يرفض الإسلام ذلك .. ويدعو - بدلاً من الصراع المدمر .. والسكون المقلد - إلى «الدفاع الحضاري» .. الذي هو «حراك» وسط بين «دمار الصراع» و«موت السكون والتقليد».

فالتناقضات، يجب أن تحل بالحراك الاجتماعي والسياسي والحضاري، الذي هو تنافس وتسابق بين الأفراد والطبقات والاحزاب والأمم والدول والحضارـات .. تنافس، لا ترتفع حرارته إلى «حـدة» الصراع، الذي يصرخ فيه طرف الطرف الآخر، فيُلْغـي تعددية الفرقـاء والأطرافـ والأقطـاب ..

وأيضاً، لا تتطـفىء حرارته، فيتحول إلى سـكون، هوـ في الحـقيقة - استسلام الـضعـفاء للأـقوـيـاء، وـتـقلـيدـ المـهـزـومـينـ لـالـمـنـتـصـرـينـ ..

هكذا يرى الإسلام قضية التعددية:

- قانوناً إلهياً.. في كل عوالم المخلوقات.. وسنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل.
  - ويراحتها وسطاً.. عدلاً.. متوازناً.. جامعة للتنوع والاختلاف في إطار الوحدة. فالوحدة تعني: التركب من الأجزاء المتنوعة.. والتنوع لا بد أن يكون في إطار الوحدة الجامعة لفرقاء المتمايزين..
  - وعموم هذا القانون - في قضية التعددية - يعني شموله لكل عوالم الخلق.. من الذرة إلى العالم.. من الفرد إلى الإنسانية.. من الأحياء إلى الجماد إلى النبات.. من الملل والشرائع إلى الفلسفات والأفكار والأحزاب..
- وصدق الله العظيم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُورًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارِفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَاقُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].  
﴿لَكُلٌّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرِيعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨].  
﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَّلُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [آل عمران: ١١٨].  
﴿وَلِذِلِّكَ خَلَقْتَهُمْ﴾ [هود: ١١٩، ١١٨].

\* \* \*

فهي التعددية في إطار الوحدة..

وهي الوحدة الجامعة للتنوع والتمايز والاختلاف..

إنها الجدلية الوسطية، التي تمثل - في واقعنا المعاصر - طوق نجاها الإنسانية من غلوّ الإفراط والتفريط..

\* \* \*

## الفصل التاسع

### في التفاعل الحضاري

في الحديث عن علاقة الأمة العربية الإسلامية بالآخر الحضاري.. وعلاقة الحضارة الإسلامية بالحضارات الأخرى - وبالحضارة الغربية على وجه الخصوص - وهي العلاقة التي تطرح علينا وعلى الغرب هذا الموضوع - أجد من الضروري التمييز بين «الأوهام» و«الحقائق» التي اختلطت في هذا الموضوع.

● فوهم كبير أن يتصور أحد إمكانية العزلة الحضارية - في ظل ثورة وسائل الاتصال الحديثة - لأية حضارة من الحضارات، حتى لو أرادت ذلك، واجتمع أهلها على اختيار العزلة!.. بل إن مثل هذه العزلة بين الحضارات لم تحدث حتى في التاريخ القديم، وخاصة للحضارات القائمة في الواقع الحاكم بطرق الاتصال بين قارات العالم.. وفي مقدمتها حضارات الشرق، عبر التاريخ..

● ومن حقائق «طب الحضارات» - إذا جاز التعبير - أن الانغلاق والعزلة الحضارية، لا بد وأن يؤديها إلى الذبول والاضمحلال الحضاري.. تماماً كما يحدث للجسم الذي يتغذى على «ذاته»، دون مدد من «المحيط»!..

● ومن حقائق «طب الحضارات»، أيضاً، أن تقليد حضارة لآخر، وخاصة في «الهوية» وثوابت السمات والسمات المميزة لخصوصيتها، على النحو الذي يؤدي إلى التبعية، إنما يقود، هو الآخر، إلى الذوبان والاضمحلال الحضاري.. لأن «حياة» الحضارة، أية حضارة، إنما تكمن في «الإبداع».. و«الإبداع» مستحيل مع «التقليد»، فلا

يبدع الا صاحب المشروع التميز والتفوزج الخاص .. أما المقلد فإنه يعطي ملكات الإبداع «إجازة» مكتفياً بالنماذج «المعلبة»، والخيارات «الجاهزة». وإذا كان «الانغلاق» مستحيلاً.. وإذا كانت «العزلة» تقود إلى الذبول والاضمحلال.. ولما كان «التقليد» يقود إلى التبعية، التي تعنى، هي الأخرى، الذوبان والذبول، أي اضمحلال الذاتية والخصوصية.. فلابد - في العلاقة مع الآخر الحضاري - من البحث عن الموقف الثالث.. الوسط.. العدل.. الحق في هذا الموضوع.. وهو الذي أسميه بـ«التفاعل الحضاري»، من موقع الراشد المستقل، الذي ينفتح على كل حضارات الدنيا، دون أن يفقد ذاتيته وهويته واستقلاله الحضاري.

وهذا الموقف.. موقف «التفاعل الحضاري».. الذي هو وسط بين «الانغلاق - والعزلة» وبين «التقليد - والتبعية».. يستلزم ويستوجب اكتشاف مساحة «الخصوصية الحضارية»، المكونة لهويتنا الحضارية.. والتي لابد من إحيائها، والاستمساك بها، وحمايتها.. كما تحمى الأمم أغراضها.. بل وصناعاتها الوطنية.. واكتشاف مساحة «المشترك الإنساني العام» في الإبداع الإنساني، لا لنقبله فقط من الآخرين، بل ولنسعى إلى امتلاكه بكل ما أوتينا من قوة، ولنتتلمذ فيه على كل الآخرين الذين يبدعون فيه!..

وإذا كان لي أن أضرب أمثلة على السمات والسمات التي أراها نماذج لهويتنا وذاتيتنا الإسلامية وخصوصيتنا الحضارية، فإني أتبه على أن المدخل إلى هذا الميدان هو الوسطية الإسلامية الجامحة.. أي التي لا تقف ساكنة بين القطبين والطرفين، وإنما تجمع منهما ما يمكن جمعه وتاليقه من عناصر الحق والصواب.

فإذا كانت «الزرقانا» الهندية - ومعها الفكر «الباطنى - الغنوسي» - ترى الإنسان «هامشاً - حقيراً - فانياً في المطلق».. على حين تراه الحضارة الغربية سيد هذا الكون.. فإن وسطيتنا الإسلامية تراها الخليفة عن سيد هذا الكون وخلقه، سبحانه وتعالى.. فلا تجرده من الحرية والسلطات.. وأيضاً لا تطلق العنان لهذه الحرية والسلطات.. وإنما تقرها وتنميها، مع حكمها وضبطها ببنود عقد وعهد الاستخلاف - الشريعة الإلهية - فهو - الإنسان - بعبارة الإمام محمد عبده : «عبد الله وحده، وسيد لكل شيءٍ بعده»!..

وإذا أقام النموذج الباطنى طريق الخلاص - التقدم - على العرفان والرياضية الروحية فقط.. وأقام النموذج المادى - الغربى - التقدم على عوامل المادة وإشباع الحاجات الدينية وحدها.. فإن خيارنا الحضارى هو الذى يرى السعادة فى التوازن - العدل - الوسطية - فيؤسس المعرف على كتابى الوحى المقرء والكون المنظور .. ويقرأ النقل بالعقل ويحكم غرور العقل بالنقل .. ولا يرى سعادة فى الدنيا إلا إذا حفقت سعادة الآخرة - التى هى خير وأبقى - ولا يقف بالحقوق عند حدود الإنسان، وإنما يمد نطاقها إلى حقوق الله، التى تمثلها حقوق الأمة والمجتمع البشرى .. فلا يجرد الإنسان - مثلاً - من حقوق التملك فى الثروات والأموال .. كما لا يطلق العنان لتملكه فى هذا الميدان، وإنما يعتمد نظرية وسطية الاستخلاف، فираه مالكاً للمنفعة، محكومة تصرفاته بشرعية المالك الحقيقى والواهب الأصلى للثروات والأموال، سبحانه وتعالى ..

وقس على ذلك ثمرات ومعالم الوسطية الإسلامية التى هي صبغة الهوية الحضارية، التى ميزت علومنا الإنسانية، باعتبارها ثقافة «النفس المسلمة» التى تهذب وتحجب أن تتهذب وفق خصوصيات المعتقد والموروث وفلسفة النظر للكون . بدءاً .. ومسيرة .. ومصيراً .. وحكماً وغایيات .. وكذلك التقليد والأعراف والعادات ..

تلك أمثلة على بعض سمات الخصوصية الحضارية .. والبصمة القومية .. والذاتية الثقافية .. التى يمثل إحياؤها، وتمثل حمایتها - فى معرك الصراع الثقافى والإعلامى - الشروط الضرورية للرشد والاستقلال .. ومؤهلات «التفاعل» مع الآخر، دونما سقوط فى إفراط «الانغلاق» أو تفريط «التقليد والتبعية» ..

● ومع اكتشاف وإحياء وحماية مساحة الخصوصية الحضارية - للنجاة من «التقليد .. والتبعية» - فلابد من اكتشاف مساحة «المشترك الإنسانى العام» .. التى تتمثل فيها الإبداعات الإنسانية للحقائق والقوانين والمعارف التى لا تتغير بتغير الحضارات والمعتقدات .. وإذا كانت تجارب النفس الإنسانية لا تتكرر ولا تتمثل .. الأمر الذى ميز ويميز العلوم الإنسانية فى كل حضارة من الحضارات العربية .. فإن حقائق وقوانين العلوم «الموضوعية - الطبيعية - المحايدة» لا تتغير بتغير عقائد أو حضارات علمائها .. وذلك لثبات المادة التى هى موضوعها ..

والتمايز بين الحضارات، في هذا الميدان لا يتعدي فلسفات وأخلاقيات تطبيقات حقائق وقوانين هذه العلوم.. فحقائق علم التربة الزراعية، لا تتغير بتغيير باحثيه فى المعتقد أو الجنس أو الوطن.. وإنما يقع ويرد التغير فى تطبيقات هذه الحقائق بين من يسخرها فى زراعة الحلال الطيب - بالعيار الدينى - وبين من يسخرها فى زراعة ما يحقق اللذات الدينوية والشهوات الآنية، بصرف النظر عن علاقة ذلك بأسباب السعادة في الدار الآخرة.. الامر الذي يحول مطلق العلم إلى علم نافع.. وعلم لا ينفع، إذا ضبط «النفع» بضوابط الدين!..

فإذا نحن اكتشفنا «مساحة: الخصوصية.. والهوية الذاتية».. و«مساحة: المشترك الإنساني العام»، استطعنا تحقيق «الاستقلال الذاتي - الحضاري» مع «التفاعل - الحضاري» مع كل حضارات الدنيا..

#### بقيت ملاحظتان:

الأولى: يرصدها الباحث في المسارات الحضارية للأمم في هذا الميدان.. عندما يرى أن الأمم والحضارات في لحظات القوة والمنعة لا تدقق كثيراً في سبل «الحماية» من الآخر الحضاري.. بل تفتح - تقريراً - كل النوافذ على الآخرين.. مثلاً كمثل معدة الجسم القوى، لا تخشى طعاماً؛ لأنها قادرة على الهضم.. والتتمثل للمغيف.. والطرد لما هو غير مناسب أو ضار..

أما في مراحل الضعف والاستضعاف، فكثيراً ما تعلو الأصوات الداعية للتدقيق في سبل «الحماية» من الآخر الحضاري.. كحال الجسد المريض، الذي قد يؤذيه حتى الجيد والدسم من الطعام.. بل وقد يضره حتى الهواء العليل!..

تلك ملاحظة لابد من إدراك مغزاها ونحن نرى الصراع بين «الافتاحيين» وبين «الانغلaciين». في واقعنا المعاصر.. وهي قد حدثت قدি�ماً في مسيرةنا الحضارية.. فإن نهضة أسلافنا وقوتهم حدث الفتح لأغلب النوافذ ومعظم الأبواب على الآخرين.. أما في عصر التراجع والاستضعفاف فقد رأينا منهجه «ابن عربي»، الذي جعل قلبه بعيداً للتوحيد والتثليث والوثنية واليهودية وكل الثقافات!.. ورأينا منهجه «ابن تيمية»، الذي رفع شعار: «اقتضاء الصراط المستقيم: مخالفة أهل الجحيم»!..

**• ولللحظة الثانية:** ترى في «التفاعل الحضاري» - الرافض «للانغلاق» و«التقليد» - التبعية». القانون الذي حكم ويحكم العلاقة الصحية بين الحضارات على مر التاريخ - فهو «قانون» .. وليس اختراعاً ..!

● لقد انفتح أسلافنا على الحضارة الهندية .. لكنهم أخذوا حسابها وفلكلها، دون فلسفتها.

● وانفتحوا على الحضارة الإغريقية والرومانية .. لكنهم أخذوا تدوين الدواعين، ولم يأخذوا شريعة الرومان وقانونهم .. وأخذوا العلوم الطبيعية، دون الإلهيات والأداب .. وعندما ترجموا الفلسفة العقالية اليونانية أرادوها سلاحاً عقلانياً أجنبياً ضد الباطنية الفنوصية الأجنبية - التي مثلت التهديد الأكبر للإسلام - وخللت هذه الفلسفة مجرد سلاح بيد «الخاصة» من الفلاسفة، ولم تتحول إلى فلسفة للإسلام وأمته في يوم من الأيام ..

● وانفتح أسلافنا على الحضارة الفارسية .. لكنهم أخذوا «التراتيب الإدارية»، دون المذاهب الفارسية ..

● وعندما انفتحت الحضارة الغربية على حضارتنا الإسلامية، إبان نهضتهم، أخذوا عن ما هو مشترك إنساني عام - من المنهج التجريبي .. إلى العلوم الطبيعية - ولم يأخذوا التوحيد الإسلامي، ولا الوسطية الإسلامية، ولا المثل والمقاصد والأخلاقيات .. فلقد أنسوا نهضتهم على «كلاسيكيات الإنسانيات اليونانية» - في الثقافة المتميزة - وعلى حقائق وقوانين العلوم المحايدة - التي هي مشترك إنساني عام ... بل لقد صنعوا هذا «التمييز» حتى مع المفكر الواحد - مثل ابن رشد - فأخذوا عنه عقلانية أرسطو .. وتركوا عقلانية الإسلام - الجامعة لما بين الحكم والشريعة من الاتصال -؟! .. وأخذوا طب ابن سينا دون إشرافيته الفلسفية .. إلخ .. إلخ ..

وعلينا - نحن .. الآن - أن نهيء ونبثور منهاج التفاعل الحضاري مع الآخرين - غرباً وشرقاً. وأن تحدد مساحة الخصوصية الحضارية .. والهوية الثقافية .. والبصمة القومية .. ومساحة المشترك الإنساني العام .. لننفتح على الدنيا، ونصافح الجميع، دون أن نفقد هويتنا، فنجو من إفراط «العزلة والانغلاق» .. ومن تغريط «التبعة والتقليد».

## الفصل العاشر

### في العقلانية المؤمنة

في الحضارة اليونانية القديمة.. وكذلك في صورتها الحديثة: الحضارة الغربية المعاصرة.. انحاز الفلاسفة إلى «العقل» و«براهينه» أداة وحيدة لإدراك في الظواهر والأشياء.. ففي المجتمع اليوناني، كانت السيادة للوثنية.. ولم يكن هناك «وحي» إلهي، ولا «نقل» ديني ينافس «العقل» أو «يزامله» في ميدان الفلسف والتأمل والتفكير.

وبسبب من أن النهضة الحضارية الغربية - رغم تبلورها في مناخ مسيحي - كانت علمانية الروح والجواهر والطابع.. وبسبب من رفض اللاهوت المسيحي - كما تبلور في الكنيسة الكاثوليكية الغربية - رفضه اعتماد «العقل» سبيلاً إلى «الإيمان».. فلقد جاءت هذه النهضة الحضارية الغربية الحديثة امتداداً للموقف اليوناني القديم، في الاعتماد على «العقل» وحده أداة للفلسفة والتأمل والتفكير..

تلك قسمة تميزت بها الفلسفة والإبداع الفلسفى في الحضارة الغربية، منذ اليونان وحتى عصرها الحديث.. فالعقل، وحده، هو أداة الفلسفة والفلسف.. و«الوجودان.. والنقل»، وحدهما، السبيل إلى التدين والإيمان!.

وإذا كان هذا الموقف قد عرف طريقه إلى شريحة من شرائح تيار الفلسفة والفلسف في تراثنا العربي الإسلامي.. فإن القطاع الأعظم من تيار الفلسفة الإسلامية قد اتخذ من هذه القضية موقفاً متميزاً ومغايراً.. فالتيار العقلاني في حضارتنا العربية الإسلامية - وفرسانه: «المعتزلة»، بخاصة، و«أهل العدل والتوحيد»، بعامة - قد انطلاقوا، على درب التفلسف والإبداع الفلسفى، من «النقل» أي القرآن الكريم، الذي أعلى مقام

العقل، واستفادوا من اقتصاد الإسلام في الحديث عن «الغيبيات»، فصاغواـ من قبل ترجمة الفلسفة اليونانية إلى العربيةـ وربما للمرة الأولى في تاريخ الفكر الفلسفـيـ صاغوا «علم الكلام الإسلامي»ـ «علم التوحيد»ـ فلسفة إسلامية مؤسسة على الوحي الإلهي، فيها تزامن «العقل»ـ «النقل»ـ وتأخت «الحكمة»ـ و«الشريعة»ـ وجاورت «العقليات»ـ «السمعيـات»ـ وشد «التوحيد»ـ في الألوهـيةـ من أزر «الطبائع والسببية»ـ.. واستطاعوا بهذه العقلانية الإسلامية المتميزة النهوض بمهـمة مـجـادـلةـ الفـلـاسـفةـ واللاهوـتيـنـ منـ أـبـنـاءـ الـمـلـلـ الـأـخـرـىـ، فـوـظـفـوـاـ الـفـلـاسـفـةـ لـلـمـرـةـ الـأـوـلـىـ فـيـ التـارـيـخــ سـلاـحـاـ بـيـدـ الدـيـنـ، وـكـانـ لـهـمـ فـيـ هـذـاـ الـمـيـدانـ، فـضـلـ نـشـرـ إـلـاسـلـامـ فـيـ الـبـلـادـ الـتـىـ اـزـهـرـتـ فـيـهاـ الـأـبـنـيـةـ الـفـكـرـيـةـ الـتـىـ اـسـتـرـشـدـتـ بـمـيرـاثـ الـيـونـانـ الـفـلـاسـفـيـ وـالـمـنـطـقـيـ فـيـ الـمـنـاـفـرـةـ الـجـدـالـ.

صنـعـ هـذـاـ التـيـارـ الـعـقـلـانـيـ قـسـمـةـ الـعـقـلـانـيـةـ إـلـاسـلـامـيـةـ فـيـ حـضـارـتـناـ، تـلـكـ الـتـىـ أـدـهـشـتـ مـفـكـرـىـ الـغـرـبـ مـنـ تـمـيـزـهـ بـالـتـدـيـنـ، فـكـتـبـ الـفـرـيـدـ جـيـومـ Alfred Cuillaume يقول: «إنـ قـوـةـ الـحـرـكـةـ الـاعـتـزـالـيـةـ مـرـدـهـاـ.. إـقـامـةـ عـلـمـ الـكـلـامـ إـلـاسـلـامـيـ عـلـىـ أـسـسـ ثـابـتـةـ مـنـ الـفـلـاسـفـةـ، مـصـرـيـنـ فـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ عـلـىـ أـنـ تـكـوـنـ تـلـكـ الـأـسـسـ مـنـخـقـيـةـ.. مـعـ وـجـوبـ أـنـ تـدـرـسـ بـوـصـفـهـاـ مـنـ صـمـيمـ الـعـقـيدةـ الـدـيـنـيـةـ..»<sup>(١)</sup>.

وـعـلـىـ عـكـسـ الـمـسـيـحـيـةـ وـحـضـارـتـهاـ الـغـرـبـيـةـ، الـتـىـ وـقـتـ فـلـاسـفـتـهاـ عـنـدـ «ـالـعـقـلـ»ــ فـىـ مـعـادـةـ «ـالـنـقـلـ»ــ وـدـعـاـ دـيـنـهـ إـلـىـ أـنـ يـؤـمـنـ بـمـاـ يـلـقـىـ إـلـىـ قـلـبـهـ دـوـنـ نـظـرـ عـقـلـىــ عـلـىـ حدـ قولـ القـدـيسـ أـنـسـلـمـ Anselme (٢٣٢ـ ١٠٩ـ مـ)ــ جـعـلـ الـمـعـتـزـلـةـ «ـالـنـظـرـ»ـ أـوـلـاـ وـاجـبـاتـ الـإـنـسـانـ<sup>(٢)</sup>ــ لـآنـ النـظـرـ الـعـقـلـيـ هوـ سـبـيلـ مـعـرـفـةـ اللـهـ وـالـإـيمـانـ بـهـ، وـعـلـيـهـماـ يـتـرـتـبـ الـإـيمـانـ بـالـرـسـالـةـ وـالـرـسـلـ وـالـوـحـىـ وـالـكـتـابـ.. وـمـنـ هـنـاجـاءـ اـعـتـمـادـهـمـ عـلـىـ «ـالـعـقـلـ»ــ مـعـ «ـالـكـتـابـ»ـ وـ«ـالـسـنـةـ»ـ وـ«ـالـإـجـمـاعـ»ـ.. بـلـ وـتـقـدـيمـهـ عـلـيـهاـ، لـاـ تـقـدـيمـ تـفـضـيلـ، وـإـنـماـ تـقـدـيمـ تـرـتـيبـ.. فـقـالـوـاـ: إـنـ «ـالـأـدـلـةـ»ـ أـوـلـاـتـ دـلـالـةـ الـعـقـلـ؛ لـآنـ بـهـ يـمـيـزـ بـيـنـ الـحـسـنـ وـالـقـبـيـحـ، وـلـآنـ بـهـ يـعـرـفـ أـنـ الـكـتـابـ حـجـةـ، وـكـذـلـكـ الـسـنـةـ، وـالـإـجـمـاعـ، وـرـبـماـ تـعـجـبـ مـنـ هـذـاـ التـرـتـيبـ بـعـضـهـمـ، فـيـظـنـ أـنـ الـأـدـلـةـ هـىـ: الـكـتـابـ، وـالـسـنـةـ، وـالـإـجـمـاعـ، فـقـطـ، أـوـ يـظـنـ أـنـ الـعـقـلـ إـذـاـ كـانـ

(١) جـيـومـ (ـالـفـلـاسـفـةـ وـعـلـمـ الـكـلـامـ)ـ صـ ٣٧٩ــ ضـمـنـ كـتـابـ «ـثـرـاثـ إـلـاسـلـامـ»ــ طـبـعـةـ بـيـرـوـتـ سـنـةـ ١٩٧٢ــ

(٢) دـ. عـلـىـ قـهـمـيـ خـشـيـمـ (ـالـجـبـائـيـانـ:ـ أـبـوـ عـلـىـ،ـ وـأـبـوـ هـاشـمـ)ـ صـ ٣٣٣ــ طـبـعـةـ طـرابـلـســ لـيـبـيـاــ سـنـةـ ١٩٦٨ــ

يدل على أمور فهو مؤخر، وليس كذلك. لأن الله تعالى لم يخاطب إلا أهل العقل، ولأنه يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة، والإجماع، فهو الأصل في هذا الباب. وإن كان يقول: إن الكتاب هو الأصل من حيث إن فيه التنبيه على ما في العقول، كما أن فيه الأدلة على الأحكام.. ومتي عرفنا، بالعقل، إلهًا منفردًا بالإلهية، وعرفناه حكيمًا، نعلم في كتابه أنه دليل، ومتي عرفناه مرسلاً للرسول، ومميزًا له بالأعلام المعجزة، من الكاذبين، علمنا أن قول الرسول حجة. وإذا قال عليه السلام: «لا تجتمع أمتي على خطا»<sup>(١)</sup>. «علِمْنَا أَنَّ قَوْلَ الرَّسُولِ حَجَّةٌ . . . وَإِذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَىٰ خَطَا»<sup>(٢)</sup>، علمنا أن الإجماع حجة..<sup>(٣)</sup>

فاعتماد العقل هنا، وتقديمه ليس غضًا من شأن «النقل»، بل موازرة ومؤاخاة وتأييده.. فهم لم يقولوا بانفراد العقل بالمعرفة، وإنما اعتمدوا دليلاً لمعرفة الأصول الشرعية، فعدهم - كما يقول الماوردي (٩٤٥ هـ / ١٠٥٥ م): إن «السبب المؤدى إلى معرفة الأصول الشرعية والعمل بها شيتان: أحدهما علم الحس، وهو العقل؛ لأن حجج العقل أصل لمعرفة الأصول، إذ ليس تعرف الأصول إلا بحجج العقول.. فالعقل: ألم الأصول.. وثانيهما: معرفة لسان العرب - وهو معتبر في حجج السمع خاصة»<sup>(٤)</sup>.

فالعلاقة عضوية، والعروة وثقى - في هذه العقلانية الإسلامية - بين «العقل» و«الشرع»: باعتبارهما دليلين خلقهما خالق واحد، وجعلهما السبيل لهداية الإنسان، وإذا قلنا: «إن لكل فضيلة أساً، ولكل أدب ينبعوا، فأأس الفضائل وينبع الأدب هو العقل، الذي جعله الله تعالى للدين أصلًا، وللدنيا عمادًا، فأوجب التكليف بكماله، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه، وألف به بين خلقه، مع اختلاف هممهم وماربهم، وتبالغ أغراضهم ومقاصدهم، وجعل ما تعبدهم به قسمين: قسمًا وجوب العقل، فوكده الشرع، وقسمًا جاز في العقل، فاؤجبه الشرع، فكان العقل لهما عماداً»<sup>(٥)</sup>.

(١) لفظ الحديث في ابن ماجة: «إن أمتي لا تجتمع على ضلاله».

(٢) رواه - بالفاظ متفاوتة، مع اتحاد المعنى - البخاري ومسلم والترمذى والنسائي وابن ماجة.

(٣) قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٢٧. طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م.

(٤) أدب القاضى جداً من ٢٧٥، ٢٧٤ طبعة بغداد سنة ١٩٧١ م.

(٥) الماوردي (أدب الدنيا والدين) ص ١٩. طبعة القاهرة ١٩٧٢ م.

وعلى عكس العقلانية الغربية الملحدة، التي جعلت من إعطاء المادة والطبيعة حظها من السببية والفعل أمراً ينفي وجود الإلهية، كالسبب الأول والأعظم في هذا الكون.. على العكس منها جمعت العقلانية الإسلامية بين الأمرين.. فللطبيعة فعل، ومادتها ظواهرها وعواملها أسباب لسببيات.. ومع ذلك فإنها - مع فعلها - مخلوقة للسبب الأعظم والأول في هذا الكون.. وتلك واحدة من إنجازات علم الكلام الإسلامي، الذي أبدعه التيار العقلاني في حضارتنا.. ولتأمل عبارة الجاحظ (٦٣ هـ / ٢٥٥ هـ / ١٠٧٩ م) التي يقول فيها: «وليس يكون المتكلم جاماً لأقطار الكلام، متمناً من الصناعة، يصلح للرياسة، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة!.. والعالم عندنا هو الذي يجمعها.. والمصيبة هو الذي يجمع تحقيق «التوحيد» وإعطاء «الطبائع» حقها من الأعمال!.. ومن زعم أن «التوحيد» لا يصلح إلا ببطلان حقائق «الطبائع». فقد حمل عجزه على الكلام في «التوحيد»، وكذلك إذا زعم أن «الطبائع» لا تصلح إذا قررناها «بالتوحيد»، ومن قال هذا فقد حمل عجزه على الكلام في «الطبائع».. وإنما يीأس منك الملحد إذا لم يدعك التوفيق على «التوحيد» إلى بخس حقوق «الطبائع» لأن في رفع «أعمالها» رفع «أعيانها»، وإذا كانت «الأعيان» هي الدالة على الله، فرفعت «الدليل»، فقد أبطلت «المدلول عليه»!.. ولعمري إن في الجمع بينهما لبعض الشدة؟!.. وأنا أعوذ بالله، تعالى، أن أكون كلما غمز قناتي بباب من الكلام صعب المدخل، نقضت ركناً من أركان مقالتي!.. ومن كان كذلك لم ينتفع به؟!»<sup>(١)</sup>.

هكذا وعلى هذا النحو وفي مواجهة كل «الثانيات».. صاغ التيار العقلاني القسمة العقلانية لحضارتنا العربية الإسلامية، فوازنوا - «بالوسطية» - وجمعوا وألفوا بين ما يمكن جمعه وتأليفه من المقابلات والأقطاب، التي عدت في الحضارات الأخرى نقائض لا يمكن تعايشها، فضلاً عن الجمع والتآليف بينها.. ثم هم قد كانوا فلاسفة ودعاة إلى الدين.. وعلماء ورجال دولة، وفرسان العلوم النظرية والعملية معاً، يبحثون في الإلهيات ويجررون التجارب على النباتات والحيوانات.. فلقد كان فيهم من «أشراف أهل الحكمة» مشتغلون بعلم الحيوان، يجررون فيه التجارب واللاحظات والاستقراءات،

(١) (كتاب الحيوان) ج. ٢ ص ١٢٤، ١٣٥ تحقيق: الاستاذ عبد السلام هارون. طبعة القاهرة - الثانية.

ويقولون فى شرفه وقدره: «إن هذا العلم يتفرغ للجدال فيه الشيوخ الجلة والكهول العلية، وحتى ليختاروا النظر فيه على التسبيح والتهليل، وقراءة القرآن، وطول الانتساب في الصلاة، وحتى ليزعم أهله أنه فوق الحج والجهاد، وفوق كل برجاتهاد...»<sup>(١)</sup> - على حد قول الجاحظ في (كتاب الحيوان) ..

لقد كانوا علماء.. وصناع حضارة.. طبعوا الحضارة التي أبدعواها بهذا الطابع العقلاني المتميز والفرد.. فماذا صنع بهم، وبهذه العقلانية الإسلامية ذلك الانقلاب الذي أحدثه عسكرة الدولة عندما هيمن عليها العسكر المماليك؟! ..

\* \* \*

كان الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤هـ - ٧٨٠م) يمثل في بغداد العباسية النقيس الصريح لفكرة التيار العقلاني الإسلامي.. فعداؤه المفهوم الفلسفية اليونانية قاده إلى معاوادة علم الكلام الإسلامي وتجرير جميع المتكلمين.. ونفوره من العقلانية وقف به عند النصوص وحدها.. بل وعند ظواهر النصوص.. ولم يكن الإمام أحمد - بداهة - فيلسوفاً ولا متكلماً.. بل ولم يكن في الحقيقة فقيها، وإنما كان محدثاً، جمع واحداً من أكبر مسانيد الحديث النبوي الشريف.. وصاغ أصول «المنهج النصوصي»، المعتمد على الأخبار وحدها، والرافض لما عدا النصوص من أدوات التفكير والبحث والبرهان.

فأركان منهجه الخمسة - كما يحددها الإمام السلفي ابن القيم (٦٩١هـ - ٧٥١م) / (٢٩٢م - ١٢٥٠م) - تجعل محوره الأوحد - تقريباً - هو النصوص.. «فالاصل الأول: النصوص.. والأصل الثاني: ما أفتى به الصحابة» - وهي نصوص - «والاصل الثالث: إذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهم».. - نصاً من النصوص... «والاصل الرابع: الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف».. - وهي نصوص يقدمها - مع ضعفها - على غيرها من سبل الاستدلال... «والاصل الخامس: القياس للضرورة، إذا لم يكن عنده في المسألة نص، ولا قول الصحابة، أو واحد منهم، ولا أثر مرسل أو ضعيف»!<sup>(٢)</sup> ..

(١) (كتاب الحيوان) ج ١ ص ٢١٦، ٢١٧.

(٢) (اعلام المؤمنين) ج ١ ص ٧٦، ٧٧ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

لقد كان معادياً للرأي وأصحابه، ينهى عن سؤال أصحاب الرأي، ويقول: «إن ضعيف الحديث أقوى من الرأي».

يل لقد صاغ الإمام أحمد بن نفسه منهجه النصوصي هذا.. صاغه شعراً فقال:

نعم المطية للفتى الأخبار  
فالرأي ليل والحديث نهار؟!  
والشمس طالعة لها أنوار  
فالمسلمون مدآثار  
لاتخذون عن الحديث وأهله  
ولربما جهل الفتى طرق الهدى

وهذه «النصوص» - وحدها - هي «العلم» أيضًا.. ووفق الصياغة الشعرية لواحد من أعلام هذا التيار.. فإن:

قال الصحابة ليس خلف فيه  
بين النصوص وبين رأي سفيه  
بين الرسول وبين رأي فقيه  
حضرًا من التجسيم والتشبيه  
من فرقة التعطيل والتمويه! (١)  
العلم: قال الله تعالى: يا رسوله  
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة  
كلا ولا نصب الخلاف جهالة  
كلا ولا رد النصوص تعمدا  
حاشا النصوص من الذي رميتك به

فالنصول وحدها هي العلم، ولا عبرة بالرأي، ولا مدخل له فيها حتى لو أدت  
ظواهرها إلى «التجسيم والتشبيه» في حق الذات الإلهية؟!..

وبناءً على هذا «المنهج التصوّصي»، رفض الإمام أحمد «الرأى» و«القياس»—إلا عند انعدام التصوّص، ولو الضعف، وبشرط تجعله مدعوماً— ورفض «التأويل» و«الذوق» و«العقل» و«البسالة»... وكل ما عدا ظواهر التصوّص من أدوات الاستدلال<sup>(٢)</sup>.

<sup>٧٩</sup> (١) المصدر المسابق ج ١ ص ١

ولقد كان هذا المنهج النصوصى يستقطب قطاعاً من «العامة»، بحكم القصور الفكرى الذى يقف بهم عند المحسوس، وغلواهز النصوص.. فلما اقترب نفر من المعتزلةـ وليس تيار المعتزلة كما يظن كثيرونـ خطيبة استخدام سلطة الدولة فى الضغط على الإمام أحمد كى يقول بقولهم فى «خلق القرآن» وأبى الرجل ذلك، وتحمل فى بسالة المجاهدين ما نزل به من الاضطهاد فى عهود الخلفاء الثلاثة الذين كانوا على مذهب الاعتزال: المأمون.. والمعتصم.. والواثق اكتسب الرجل تجلة وإعظاماً لدى قطاعات عريضة من جمهور العامة وكثير من المفكرين والعلماء.. فأضفت محته على مذهب الفكري مالم يكن يستحقه به ولا يكتسبه بغير هذه المحنـ وهذا الاضطهاد؟!..

فلمـا حدث الانقلاب التركى الملاوكى.. وتعسـكـرتـ الدولـة.. وـكانـ هـؤـلـاءـ التـركـ المـالـيـكـ عـسـكـرـاًـ جـفـاةـ ضـيقـىـ الأـفـقـ، لاـ درـبـةـ لـهـمـ وـلاـ قـدـرـةـ عـلـىـ استـيعـابـ العـقـلـانـيـةـ الإـسـلـامـيـةـ.. إـذـ كـانـتـ مـدارـكـهـمـ وـأـحـلـامـهـمـ أـدـنـىـ مـنـ مـسـتـوـىـ الـعـامـةـ فـىـ هـذـاـ الـمـيدـانـ.. ثـمـ هـمـ كـانـواـ بـحـاجـةـ إـلـىـ تـأـيـيدـ الـعـامـةـ فـيـمـاـ اـعـتـزـمـواـ مـنـ تـغـيـرـاتـ وـمـاـ دـخـلـواـ فـيـهـ مـنـ صـرـاعـاتـ مـعـ التـيـارـ العـقـلـانـيـ، الـذـىـ كـانـتـ لـهـ السـيـادـةـ وـالـهـيـمـنـةـ حـتـىـ مـاـ قـبـلـ عـهـدـ المـتـوـكـلـ العـبـاسـىـ.. لـكـلـ ذـلـكـ، وـجـدـنـاـ هـؤـلـاءـ التـركـ المـالـيـكـ يـنـتـزـعـونـ أـئـمـةـ التـيـارـ العـقـلـانـيـ مـنـ مـوـاقـعـ الـقـيـادـةـ وـالـتـأـيـيرـ، الـفـكـرـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ، بلـ وـيـزـجـونـ بـالـكـثـيرـينـ مـنـهـمـ فـىـ السـجـونـ، أوـ يـنـفـونـهـمـ مـنـ الـأـرـضـ.. وـيـأـتـونـ بـمـضـطـهـدـيـ الـأـمـسـ، أـقـطـابـ التـيـارـ النـصـوصـيـ، يـمـلـئـونـ بـهـمـ هـذـهـ الـمـراـكـزـ للـتـوـجـيـهـ وـالـتـأـيـيرـ وـالـتـنـفـيـذـ.. لـقـدـ كـانـ انـقـلـابـاـ فـكـرـيـاـ كـامـلـاـ.. غـدـتـ فـيـهـ مـقـولـاتـ التـيـارـ العـقـلـانـيـ فـكـرـاـ مـُحـرـماـ وـمـُجـرـماـ يـلـاحـقـهـ الـاضـطـهـادـ.. وـغـداـ فـيـهـ أـئـمـةـ هـذـهـ الـعـقـلـانـيـةـ مـوـضـعـ التـنـديـدـ وـأـسـرـىـ لـلـمـلـاـحـقـةـ وـالـسـجـنـ وـالـاضـطـهـادـ.

وـهـاـ هوـ شـاعـرـ هـذـاـ الـانـقـلـابــ.. عـلـىـ بـنـ الجـهـمـ (٢٤٩ـهـ / ٨٦٣ـمـ)ــ المـقـرـبـ مـنـ الـخـلـيفـةـ المـتـوـكـلـ يـسـبـ المـعـتـزـلـةـ، وـيـضـعـهـمـ وـالـشـيـعـةـ مـعـ النـصـارـىـ فـىـ سـلـةـ وـاحـدـةـ.. وـيـتـحدـثـ عـنـ اـنـتـصـارـ حـزـبـ المـتـوـكـلـ عـلـىـ «ـالـواـثـقـيـةـ»ـ.. نـسـبـةـ إـلـىـ الـخـلـيفـةـ المـعـتـزـلـىـ «ـالـواـثـقـ»ـ.. الـذـىـ حدـثـ الـانـقـلـابـ عـلـىـ فـكـرـيـةـ عـهـدـهـ وـتـوـجـهـاتـهـ.. هـاـ هوـ عـلـىـ بـنـ الجـهـمـ يـصـوـرـ لـنـاـ هـذـاـ الـذـىـ حدـثـ فيـقـولـ:

وـأـهـلـ الـإـعـتـزـالـ عـلـىـ هـجـائـىـ  
سـوـىـ عـلـمـىـ بـأـوـلـادـ الزـنـاءـ؟ـ!  
وـمـاـ «ـبـالـواـثـقـيـةـ»ـ مـنـ خـفـاءـ..

تـضـافـرـتـ الرـوـافـضـ وـالـنـصـارـىـ  
وـعـابـونـىـ وـمـاـذـبـىـ إـلـيـهـمـ  
أـنـاـ المـتـوـكـلـىـ هـوـىـ وـرـأـيـاـ

ثم يوجه سبابه إلى الرجل الدولة المعتزلي أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دَوَادَ (٦٠ هـ / ٧٧٧ مـ - ٨٥٤ مـ). وكان يومئذ معزولاً، مضطهداً، ومريضاً. فيشير إلى الطابع الفكري لهذا الانقلاب الذي اقتلع التيار العقلاني من موقعه ليزرع فيها النصوصيين.. يقول على بن الجهم، موجها الحديث إلى ابن أبي دواد:

فوق الفراش عهدا بوساد  
من كان منهم موقفاً بمعاد  
كى لا يُحدّث فيه بالإسناد  
حتى تزول عن الطريق الهدى  
ومُحدّث أو ثقت في الأقياد  
لما أنتك مواكب العواد!

لم يبق منك سو خيالك لاما  
فرحت بمصرعك البرية كلها  
كم مجلس لله قد عطلته  
ولكم مصابيح لنا أطفاتها  
ولكم كريمة عشر أرمليتها  
إن الأساري في السجون تفرجوا

فهو انقلاب واضح وحاد ضد التيار العقلاني.. أخرج «المحدثين»، أصحاب بضاعة «الإسناد» من السجون، ليحل محلهم فيها القائلون بالعدل والتوحيد.. هذه الفكرية التي عدت بدعة، على حد قول على بن الجهم في هجاء ابن أبي دواد عندما نفاه المتوكل. وكان من قبل مشير الخليفة -أى أعظم من الوزير- يقول على بن الجهم:

بعثت إليك جنادلاً وحديداً  
بالجهل منك العدل والتوحيد<sup>(١)</sup>

يا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دَوَادَ دُعْوَة  
ما هذِ الْبَعْدُ الَّتِي سَمِّيَتْهَا

ونحن لن نتحدث عن تصاعد الاضطهاد الذي أصاب أئمة التيار العقلاني.. فقط نود أن نشير إلى أن اضطهاد فكرهم قد بلغ في عهد الخليفة الظاهر بالله (٢٨١ هـ / ٩٩١ مـ - ٣١٠ مـ). إلى الحد الذي اجتمع فيه أئمة التيار النصوصي، بتشجيع من الخليفة، فأصدروا مرسوماً سمي «الاعتقاد القادرى» حرموا فيه فكر التيار العقلاني، وجرموا فيه

(١) الأصفهانى (الأغانى) ج ١ من ٣٦٧٠ - ٣٦٧٢ - ٣٦٨١ و ٣٦٩٢ طبعة دار الشعب، القاهرة.

فكريّة العدل والتّوحيد، على نحو يشبه المراسيم الكتبية الغربيّة عن روح الإسلام والنادر الحدوث في تاريخ المسلمين.. وفي هذا «الاعتقاد» صدرت أوامر الخليفة:

- ١ - بمنع تدريس علم الكلام والمناظرة في مسائله، خاصة الاعتزال ومقالات أهله، وأنذر المخالفين بالعقوبة والنّكال، نفيًا وسجناً وقتلًا!..
- ٢ - وبلعن المعذّلة على متأثّر المساجد، حتى يصير ذلك سنة من سنّة الإسلام!..
- ٣ - وبتحريم قول المعذّلة في «التّوحيد».. وفي «خلق القرآن»..
- ٤ - كما يحرّم قول المعذّلة في «العدل».. ويتحدث عن أنّ الخلق لا قدرة لهم، بل «كلهم عاجزون»!
- ٥ - ويحرّم قول المعذّلة في «المنزلة بين المنزلتين».. ويقرّر مذهب «المرجئة» في هذا الموضوع.

ولقد صدر هذا «الرسوم الفكري» باعتباره «اعتقاد المسلمين، ومن خالقه فقد فسق وكفر»!؟<sup>(١)</sup>

نعم.. حدث هذا، رغم امتياز الإسلام وحضارته بالتأكيد على أنّ الاجتهد قرض كفاية، أي فريضة اجتماعية، أكثر أهمية وأكّد في التكليف من فروض العين، يقع إثم التخلف عنها على الأمة جموعاً.. ورغم اتفاق أئمّة الاجتهد في الأمة على مشروعية «التجددية» الفكرية، عندما قرروا أنّ اجتهد المجتهد غير ملزم للمجتهدين الآخرين!..

وعلى الذين تحيرهم معرفة الأساليب والبدایات والملابسات التي أصابت إبداعنا الحضاري في الصميم بما عرف بـ«إغلاق باب الاجتهد».. عليهم أن يمسكوا بخيوط هذا التحول، الذي أحدهُ هذا الانقلاب، ففيه تكمن البداية، ومنه بدأ التراجع والجمود والخلف والانكسار!..

\* \* \*

---

(١) آدم متّز (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) ج ١ ص ٣٨١ - ٣٨٢، طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م.

## الفصل الحادى عشر

### فى القيم الإسلامية

ليس هذا مقام الدراسة المستفيضة فى مبحث «القيم».. من وجهة النظر الإسلامية.. فتلك قضية كبرى، لعل الوفاء بحثها مما يخرج عن حيز وطبيعة هذا المقام..

وإذا كانت القضية هامة.. والمقام لا يتحمل الإفاضة والتفصيل.. فإن الذى نتطلع إليه، والذى تطمح إليه هذه الكلمات هى أن تكون:

● نقاطاً.. ومحاور.. تأخذ شكل رءوس الأقلام.. لعلها أن تجد القبول فتأخذ مكان الإضافات التي تثير الإبداع فى التفصيات..

\* \* \*

١- وأولى النقاط.. بل علامات الاستفهام.. التي تحتاج إلى بحث وإجابة.. هي:  
لماذا تميزت «القيم» بمباحث خاصة في فلسفات الحضارة الغربية؟.. ولم تتميز  
بمباحث خاص في فلسفة الإسلام؟؟؟

لقد ميزت كل تيارات الفلسفة الغربية.. منذ جاهليتها اليونانية، وحتى نهضتها  
ال الحديثة.. .. ميزت مباحث القيم عن غيره من مباحث تلك الفلسفة.

ورأينا اختلاف مذاهب تلك الفلسفة حول:

● ثبات القيم وخلودها؟.. أم تغيرها وتحولها بتغير وتحول الظروف  
والملابسات؟؟؟

● وكمونها كمونا ذاتياً في طبيعة الأقوال (قيم المعرفة) .. والأفعال (قيم الأخلاق) ..  
والأشياء (قيم الفنون) ..<sup>٤٩</sup>

أم أنها صفات ذهنية يخلعها العقل على الأقوال .. والأفعال .. والأشياء، طبقاً  
للظروف الملابسات .. وبالتالي فهي تختلف باختلاف من يصدر الحكم<sup>٥٠</sup>

● وكونها موضوعية .. تمثل غايات ومقاصد<sup>٥١</sup> .. أم أنها ذاتية .. شخصية الطابع ..  
ومجرد وسائل إلى تحقيق المقاصد والغايات<sup>٥٢</sup>

● كذلك اختلفت مذاهب الفلسفة الغربية حول المرجعية التي ترجع إليها القيم ..  
والمعايير التي تقاس بها.

.. فالإفلاطونيون جعلوا مرجعيتها: في مقدار محاكاتها للعالم العلوى .. عالم المثل!

.. والمشاعرون جعلوا مرجعيتها: في مقدار ما تتحققه من التطابق بين الإرادة والعقل ..  
.. والرواقيون جعلوا مرجعيتها: في مقدار موافقتها للطبيعة ..

● .. والأبيقوريون جعلوا مرجعيتها: في مقياس اللذة التي تتحققها، ومقدارها!  
على هذا النحو - الذي أشرنا إليه - أفردت الفلسفة الغربية للقيم مباحث مستقلة ..  
واختلفت عليها وفيها مذاهب تلك الفلسفة وتياراتها.

وهذا هو الأمر الذي غاب عن مباحث فلسفة الإسلام ..

فلماذا<sup>٥٣</sup> ..

لا أعتقد أن نقصاً أو إهمالاً أو تقليلاً من شأن «القيم» قد كان السبب في ذلك الغياب ..  
بل على العكس من ذلك .. فالقيم، أي المعايير الثابتة الخالدة، التي تمثل موازين صلاح  
الأقوال .. والأفعال .. والأشياء .. موازين العقائد، والشرع، والسلوك .. هذه القيم، هي ..  
- في النظرة الإسلامية - بمثابة الروح السارية في كل شيء .. والحاكمة لكل شيء ..  
والتي يقاس بها صلاح أي شيء فهي بديهة لا خلاف عليها .. وروح سارية لا سبيل  
إلى إنكارها .. ومن أراد تلمسها في الأنساق الفكرية الإسلامية، فعليه النظر في كل  
أبواب علوم وفنون تلك الأنساق .. وليس في مبحث خاص من مباحث فلسفة الإسلام! ..

ولذلك.. لا مجال للغرابة والاستغراب، إذا نحن وجدنا **القيمة** وهي مفرد «القيم»..  
تعريفات في مباحث الاقتصاد الإسلامي - فهى في «الثمن»: ما يدخل تحت تقويم  
**مُقْوِم** .. وال**قيمي** - في مبحث الإجارة - هو غير المثلثي.. بينما لا نجد لهذا المصطلح  
تعريفات ومباحث في كتب الفلسفة الإسلامية!..

وفي الحديث النبوي الشريف - قوله، في علم العربية، المرجعية التالية للقرآن،  
والسابقة للشعر - في هذا الحديث نطالع سؤال الصحابة، رضوان الله عليهم:

- يا رسول الله، لو **قَوْمَتْ** لنا؟

- فقال عليه السلام : «الله هو **المُقْوِم**»

أى هو **المُسْفَرْ** لأسعار السلع - .. بينما لا نجد لهذا المصطلح، كما قلنا - مكاناً في  
مباحث المعرفة والأخلاق.

\* \* \*

٢ - وإذا نحن شئنا خيطاً من الموروث الحضاري الإسلامي، نستصحبه إلى مبحث  
إسلامي في «القيم الإسلامية» - وخاصة بعد أن غَبَّ الشَّفَقُ الْغَرَبِيَّ روينا.. فلم تعد  
البهيات بدهيات؟!.. ولم تعد المسلمات مسلمات؟!.. وخلت مساحات كثيرة من عقولنا  
ومن واقعنا من تلك الروح الإسلامية التي ظلت سارية في أنساقنا الفكرية وسلوكياتنا  
العملية.. بعد وفود هذا «الغَبَّشُ الغَرَبِيُّ»، الذي زاحم روحنا الإسلامية، منذ قرنين من  
الزمان.

إذا شئنا خيطاً تراثياً، نستصحبه إلى مبحث إسلامي معاصر في القيم الإسلامية..  
فإن التعريف اللغوي لـ «القيم»، من الممكن أن يكون هو هذا الخيط..

فال**قيم** - في العربية: مصدر.. معناه: الاستقامة.. والاستقامة هي: الاعتدال.. وفي  
الحديث النبوي الشريف.. يقول الرسول عليه السلام : «قل: آمنت بالله، ثم استقم»<sup>(١)</sup> - أى  
اعتدل.

---

(١) رواه مسلم والإمام أحمد.

والاعتدال - في اصطلاح العربية - وهي لسان الإسلام - هو العدل .. وفي القرآن الكريم **﴿وَكَانَ بِنِينَ ذَلِكَ قُوَّاماً﴾** [الفرقان: ٦٧] - أي عدلاً ... و**﴿إِنَّهُمْ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّٰتِي هِيَ أَقْرَمُ﴾** [الإسراء: ٩] أي أعدل.

فالقيم: هي الاستقامة .. أي الاعتدال .. أي العدل ..

والعدل - في المصطلح الإسلامي - هو الوسطية - بمعناها الإسلامي - وفي الحديث الشريف، يقول رسول الله ﷺ: «الوسط: العدل. جعلناكم أمة وسطاً»<sup>(١)</sup>.

فمبثت القيم الإسلامية هو مبحث الوسطية الإسلامية ..

والوسطية الإسلامية هي المزاج والروح المميز للإسلام عن غير الإسلامي .. وهي زاوية الرؤية الإسلامية، التي جعلت وتجعل لهذه الأمة، ولحضارتها - المتميزة بالوسطية - شهوداً على الأمم الأخرى **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أَمَةً وَسَطًا لَّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾** [البقرة: ٤٢].

\* \* \*

٢ - بقيت الإشارة الخاتمة في هذه الإشارات الثلاثة ..

إشارة لتميز الوسطية في المصطلح الإسلامي .. وأمثال نضر بها على هذا التمييز لمعانها الإسلامي عن معانيها في الأسواق الفكرية غير الإسلامية.

فالوسطية الإسلامية، لا علاقة لها بذلك المعنى السوقي الشائع لدى العامة عن الوسطية: انعدام اللون والطعم والرائحة .. وإمساك العصا من منتصفها .. والميوعة التي تفقد الفكر والسلوك كل حزم وتميز وتأثير!.

والوسطية الإسلامية، مغایرة كذلك للمعنى الأرسطي لهذا المصطلح: النقطة الرياضية الثابتة بين نقايضين .. والمغایرة لهذين النقايضين ..

ذلك أن الوسطية الإسلامية: وسطية جامعة ..

(١) رواه الإمام أحمد

نعم.. هي موقف ثالث، مميز عن النقيضين اللذين تتوسطهما.. لكنهما لا تغايرهما تمام المغایرة، وإنما هي تجمع وتألف منهما عناصر الحق، التي يمكن الجمع بينها والتآليف لها.. فهي ثمرة لهما.. وليس مغایرة لكل مكوناتهما.. وهي حصيلة جدل حي معهما، وليس نقضاً كاملاً لكتلهم.

● فمن القيم الثابتة والخالدة في المعرفة الإسلامية: الوسطية الإسلامية في نظرية المعرفة.. تلك التي أقامت وتقيم المعرفة على دعامتين كتاب الوحي - المقروء - وكتاب الكون - المنظور ..

● ومن القيم الثابتة والخالدة في المعرفة الإسلامية: الوسطية الإسلامية في «العقلانية».. تلك التي تقرأ «النقل» «بالعقل».. وتحكم «العقل» «بالنقل».. وتزكي تطبيقات هذه المعرفة العقلانية بروح «الوجود»!..

● ومن القيم الثابتة والخالدة في الإنسان والإنسانية: الوسطية الإسلامية الجامعة بين وحدة أصل الإنسان **﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾** [النساء: ١] .. وبين تنوع وتنوع الشعوب والقبائل والأقوام والشعوب والحضارات .. **﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض وأختلف ألسنتكم وألوانكم ﴾** [الروم: ٢٢] **﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكْرٍ وَأَنْتُمْ وَجْهْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لَتَعْرَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَنَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾** [الحجرات: ١٣].

● ومن القيم الثابتة والخالدة في موقع الإنسان بالكون، وعلاقته بالغير من المخلوقات: الوسطية الإسلامية الجامعة بين سعادته في الأرض وبين عبوديته لله.. فهو سيد في الكون، وليس سيد الكون.. وإنما هو خليفة عن سيد الكون.. وبعبارة الإمام محمد عبد: فالإنسان «عبد الله وحده، وسيد لكل شيء بعده»!.. فهى الوسطية الجامعة.. لا «النرثانا» - الهندية.. التي تهمش الإنسان عندما تراه: الحقير الفاني.. ولا المادية الغربية التي ألهته عندما أنسنت الإله، وعندما ألهت الإنسان!..

● ومن القيم الثابتة والخالدة في الحرية: الوسطية الإسلامية الجامعة بين حرية الإنسان، فيما هو مقدر له، وبين تفویضه فيما وراء الأسباب المقدورة له.. بين حرية إرادته وبين البواعث المكونة والمزكية لإرادته، والخارجة عن قدرته.

● ومن القيم الثابتة والخالدة في العدالة: الوسطية الإسلامية الشاملة لكل ميادين العدل - السياسية .. والاجتماعية .. والاقتصادية .. والجامعة بالتكافل بين الفرد، والطبقة، والأمة.. على النحو الذي يجمع الأعضاء في الجسد الحي الواحد.. فلا تميز الأعضاء يعني الظلم أو الإهمال لأى منها.. ولا تكافلها ووحدتها ومساواتها يعني إلغاء التمايز الطبيعي والمشروع بينها.

● ومن القيم الثابتة الخالدة في علاقة الإنسان بالغير - علاقة الوطنية بالقومية بالجامعة الإسلامية بالدائرة الإنسانية - علاقة الحضارات ببعضها - والأمم والدول بغيرها - الوسطية الجامعة بين الوحدة فيما هو مشترك إنساني عام وعالمي، وبين التمييز فيما هو خصوصيات قومية وحضارية وعقدية وثقافية.

● ومن القيم الثابتة الخالدة في علاقة المسلمين بأعدائهم: الوسطية الإسلامية الجامعة بين رفض الظلم للأعداء ورفض الظلم من الأعداء!.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءِ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَا تَعْدِلُوا اعْدُلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]. ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ لَمْ يَقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ وَتَقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [٤] إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوْلُوْهُمْ وَمَنْ يَتُولَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المرتبتة: ٩، ٨].

● ومن القيم الإسلامية الثابتة والخالدة، في كل مناحي الحياة الإنسانية - في المعرفة .. وفي السلوك .. وفي الأشياء - الوسطية الإسلامية الجامعة، التي تقيم وتحقيق التوازن - العدل - بين الدين والدنيا .. بين الدنيا والآخرة .. بين الحاكم والمحكوم .. بين الإنسان والطبيعة .. بين الأمة والدولة .. بين الحق والقوة .. بين المادة والروح - بين الوحي الإلهي والإبداع الإنساني .. فالله الذي أنزل «الكتاب» هو الذي أنزل «الحكمة» - وهي الإصابة في غير النبوة ... وهو الذي أنزل «الميزان» .. ﴿وَأَنَزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [ النساء: ١١٣].

﴿وَنَزَّلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] ﴿وَلَقَبَّا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُّؤْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩].

\* \* \*

فالوسطية الإسلامية الجامعة هي باب القيم الإسلامية الثابتة الخالدة في أي ميدان من ميادين الفكر.. والسلوك.. والإبداع.. وهي زاوية الرؤية للمعيار الذي يحدد إسلامية.. القيم.. وهي المدخل إلى مبحث إسلامي معاصر في القيم.. أحسبه ضروريًا لنا وللآخرين، الذين احتل توازنهم - بالإفراط أو التفريط - وفرضوا علينا هذا الخل، ضمن ما فرضوه!.

تلك إشارات، لعلها أن تكون «مقدمة - وحافزاً» لتفصيل الحديث في هذا البحث، الذي هو واحد من أهم مباحث النهضة الإسلامية المنشودة، في هذا العصر الذي نعيش فيه.

\* \* \*

## الفصل الثاني عشر

### في تربية الإرادة الإنسانية

العبادات: لحظات حضور، يستخلص فيها العبد كامل وجوده لقاء المعبود.. وبقدر حسن اللقاء، وكامل الالتقاء تكون الثمرات - الدنيوية والأخروية - لهذه العبادات.. فهى رياضة روحية، لترزكية النفس، وتنمية الروح، وتربية الإرادة، وتنمية الملكات.. وليس تمرينات رياضية، تقف عند تنمية الأجساد والمظاهر والأشكال والماديات.

فالصلاوة: «إقامة»، وليس مجرد «أداء»، وهى «حضور»، ولذلك فهى **﴿تَهْبَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾** [العنكبوت: ٤٥] .. ومن لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدها.. **﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾** [الأنعام: ٧٢]

والحج: قصد، يعيد الحاج بمناسكه ويستحضر شعائر ملة إبراهيم الخليل، عليه السلام، ليتحقق بذلك وحدة الدين، ومعنى أن يكون حج أمة الشريعة الخاتمة هو إلى أول بيت وضع للناس، ذلك البيت الذي أقام قواعده أبو الأنبياء، جد خاتم الأنبياء!..

وحتى يتحقق هذا «القصد: الحج»، فلا رفت فيء ولا فسوق ولا جدال!..

وإذا كانت أركان الإسلام جميعها هي «تكليف فردية» وواجبات «عينية»، فرضها الله، سبحانه وتعالى، على الفرد المكلف، فإنها - وتلك ميزتها في «الوسطية الإسلامية الجامعية» - قد جمعت جميعاً، إلى جانب التكليف الفردي، والأداء الفردي، الصورة الجماعية في الإقامة والإداء.. فصلاة الجمعة تفضل الصلاة المنفردة بأضعاف

الأضعاف.. والزكاة تكافل جماعي واجتماعي يصح به جسد الأمة، وتترابط أرواحها، بذلك الأداء الفردي لفريضة الزكاة.. والحج: موكب جماعي، تتوحد فيه مشاعر الحجيج ومظاهرهم وهم يؤدون المناسك في حرم واحد وفي أيام معلومات.. والصوم - وهو العبادة الفردية، الشديدة الخصوصية في قريحتها - يطبع المجتمعات الإسلامية بطابع عام وموحد، يحول الأفراد الصائمين إلى كيان روحي واجتماعي واحد، طوال شهر رمضان!

\* \* \*

وإذا كانت آيات القرآن الكريم قد شرعت فريضة الصوم في رمضان، ركناً من الأركان الخمسة التي بنى عليها الإسلام، عندما قال الله في هذه الآيات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتُبْ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقَوْنَ﴾ [١٨٣] أيامًا معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام آخر وعلى الدين يطيقونه فدية طعام مسكون فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خيراً لكم إن كُنْتُم تعلمون [١٨٤] شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام آخر يريد الله بكلم اليسر ولا يريد بكلم العسر ولتكملاوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكون﴿ [البقرة: ١٨٢، ١٨٥].

وإذا كانت هذه هي آيات التشريع لفريضة صوم رمضان - الذي أنزل فيه القرآن «رحمًا» ولدت منه الأمة - بعقيدتها وشريعتها وصيغة حضارتها .. فإن هذه الفريضة الرمضانية قد تميز وتميزت بخصوصية تفرد بها عن غيرها من فرائض الإسلام .. خصوصية جعل هذه العبادة سرًا بين الصائم وبين الله، الأمر الذي ابتعد بها عن أي لون من ألوان الرياء والمراءة، حتى لقد ضاحت «الإيمان». كتصديق قلبي - لا يطلع على حقيقته إلا الله! ..

وبقدر ما تكون العبادة ظاهرة يرى الناس أداؤها، ويشهدون مقاديرها، ويطلعون على درجات الحفاظ عليها، بقدر ما يعرض لها وفيها شبه الرياء والمراءة، الأمر الذي

ينقص من درجات الإخلاص فيها لله، واستخلاصها كاملة له، سبحانه وتعالى.. وإذا كانت المرأة مقصداً أو بعض المقصد من أداء العبادة، نقص دورها وتبدلت وضعفت طاقتها في التربية الروحية للإنسان.. أما إذا كانت العبادة سرّاً بين العابد والمعبود، لا يطلع على حقيقتها ومرتبة الإقامة لها ودرجة الأداء فيها إلا الله، سبحانه وتعالى، فإن فعلها يكون أكبر في التزكية للنفس، والتهذيب للروح، والتنمية لملائكة الإرادة عند الإنسان.

ولهذه الحقيقة التي ميزت فريضة الصوم عن غيرها من العبادات.. وفي ضوء هذه الحكمة من «سرية» وخصوصية هذا الركن من أركان الإسلام، ندرك معنى كون كل أعمال المسلم هي له، يراها الآخرون، إلا الصوم فإنه لله، لا يطلع على حقيقته سواه.. الأمر الذي رفع درجات هذا الصوم بقدر اختصاص العبد الصائم به مولاه.. تعني هنا المعنى وندرك هذه الحقيقة، عندما ننظر بال بصيرة في حديث رسول الله ﷺ، الذي يقول فيه: «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعينات ضعف. قال الله عزوجل: إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به. يدع شهوة وطعامه من أجل..»<sup>(١)</sup>.. فهي عبادة « خاصة - وسرية » بين الصائم وبين رب.. لا تكون إلا لله، ومن أجل الله، لا يشاركه فيها شريك، ومن ثم لا يدخلها الرياء.. الأمر الذي جعل المولى، سبحانه وتعالى يطلق فيها ولها آفاق المضاعفة للجزاء والحسنات!..

ولهذه المكانة الخاصة بالصوم، التي جعلت منه «مجاهدة خاصة» لا يطلع على حقيقتها غير علام الغيوب، كان الدور الكبير والتأثير المتميز للصوم في تربية الإرادة الإنسانية، في شريعة الإسلام وحضارة المسلمين.. فلقد غدت هذه العبادة - قبل غيرها، وأكثر من غيرها - من أعظم «جامعات» التربية والتنمية والتقوية لإرادة الصائمين!..

بل إننا لو تأملنا تميز ميقات الصوم عن مواقيت العبادات الأخرى، لرأينا معلماً آخر من معالم هذا التمييز، الذي ارتقى بميقات الصوم على درب المجاهدة والمكافحة درجات ودرجات لم تبلغها مواقيت غيره من العبادات.

---

(١) رواه مالك في الموطأ - والبخاري ومسلم والترمذى وابن ماجه والإمام أحمد.

ففى مواقیت الصلوات جمیعها فسحة ومتسع للمصلين، منها الاختیاری، ومنها لاصحاب الضرورات.. وفى مواقیت الحج فسحة ومتسع، سواء فى الاعوام.. او فى أيام الأشهر المعلومات التي هي الظرف الزمانى لاداء مناسكه - شوال وذى القعدة وذى الحجة، من كل عام.

وفى مواقیت الرزکوات فسحة، فصلاتها السنة، وتحدث عنها الفقهاء.

إلا الصوم.. فمیقاته حاکم.. إنه لحظة، كحد السيف، عندما يتبعین الخیط الأبيض من الخیط الأسوط من الفجر، وحتى لحظة الغروب ﴿وَكُلُوا وَاشْرِبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخِيطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخِيطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيلِ﴾ [البقرة: ١٨٧].. حتى أن المرء يجب عليه - إنقاذاً لصومه من الفساد - أن يسترجع اللقمة من فيه - إذا جاءت لحظة الصوم - مهما كان حظه من الجوع!.. وأن ينحى الماء العذب عن شفتیه، بل ويقذفه من فيه، مهما كان ظماناً؟!..

وهنا، وبهذا المستوى من الالتزام والإلزام، وعلى قدر الطاعة - طاعة الصائم - لولاه، الذي لا يعلم مدى هذا الالتزام إلا هو، يكون إسهام هذه العبادة في تربية الإرادة، وتکوین العزيمة، وخلق الإنسان القادر على النھوض بأمانة الخلافة والاستخلاف!.. وبقدر ذلك، يكون الجزاء من الله!..

إنه مجاهدة، يرفع من درجاتها على سلم التربية للإرادة اختصاص الله، سبحانه وتعالى، بالاطلاع على حقیقتها، وعلى درجات الالتزام بأركانها.. وإلى هذه الحقیقة يشير حديث رسول الله ﷺ، الذي يقول فيه: «من سرّه أن يذهب كثير من وحر صدره فليصم شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر»<sup>(١)</sup>.

فلقد سمي الرسول ﷺ، رمضان: «شهر الصبر»!.. وتحدث عن دوره في إزالة الغش والوساوس والحقن والغیظ والعداوة، وأشد الغضب - «الوحر» - من الصدور!.. فلا قبل لمن يريد إزالة هذه الغرائز الفاتكة من صدره إلا «بشهر الصبر».. شهر الصيام - رمضان -!.. وحتى لا تغلق هذه «الجامعة» أبوابها، عقب عيد الفطر، فتضعف الإرادة

(١) روایة النسائي.

رويداً رويداً في الشهور، الأحد عشر، نبه الحديث الشريف على صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وذلك لترتفع المjahدة، دائمًا وأبدًا، يبارادة الإنسان على أن يزيل من صدره الثمرات المرّة لغرايشه الحوانيّة!..

\* \* \*

ولأن هذه هي حقيقة الصوم، في صحيح الإسلام.. صنعت هذه الأمة أعظم انتصاراتها وأمجد إنجازاتها الحضارية، في رمضان، وكان الصوم - الذي يرث البعض في لحظات تراجعنا الحضاري الراهنـة: سبباً في البطالة والكسل وضعف الإنتاجـ. كان الصوم سبيل العزيمة وتربيـة الإرادة.. وكان رمضان شهر الانتصارات العظمى في تاريخ الإسلام والمسلمينـ!ـ

وإذا كان المقام يقتضي ضرب الأمثال، كي لا نطيل.. فيكفى أن نعلم أن أعظم انتصارات «حقبة التأسيس للدين والدولة» - الانتصار فى موقعة بدر.. وفتح مكة - قد حدث فى رمضان.. وأن أعظم انتصارات فى «حقبة التصدى للاجتياح» الصليبيى - التترى» - معركة المنصورة.. وعين جالوت - قد حدثت فى رمضان.. بل إن انتصاراتنا الوحيدة - حتى الآن - فى صراعنا مع التحالف «الصليبيى - الصهيونى» قد حدثت هو الآخر فى العاشر من رمضان؟!

- ففى السنة الثانية للهجرة - الجمعة ١٧ رمضان - كانت غزوة بدر .. أولى الفتوح الكبرى، التى أرست أولى الأسس والدعائم للدولة التى حرست الدين وساست الدنيا بهذه الدين:

ولم تكن بدر مجرد انتصار عسكري عظيم، ثارت فيه القلة المؤمنة (الذين أخرجوها من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) [الحج: ٤] - من صناديد الشرك والوثنية والجبروت.. وإنما كانت، أيضاً الإطار الذي طور فيه المسلمين، بالشوري، تعاقده بيعة العقبة.. فبعد أن كانت حدود الدولة التي يحمى فيها الانصار الرسول ﷺ، والهاجرين، هي حدود «المدينة - يثرب»، طوروا هذا التعاقد، فامتدت حدود الدولة إلى خارج المدينة، عندما قاتل الانصار عند «ماء بدر»!.. وكانت مناسبة، كذلك، لارسائء سنة

الشوري.. فيما ليس وحيًا، وبلا غا عن الله.. إذا كان الأمر سياسة وحربًا ومحكمة للأعداء.. وكانت، أيضًا، إرساء لأولى الحقوق التي تقررت للأسرى عبر مسيرة الإنسان ﴿فَإِمَّا مَنْ بَعْدُ إِمَّا فَدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعُ الْحَرَبُ أَوْ زَارَهَا﴾ [محمد: ٤].. إلخ.. إلخ..  
لقد كانت فاتحة التأسيس.. وأولى الانتصارات العظمى في رمضان.

● وفي السنة الثامنة للهجرة - ٢٠ رمضان... كان الفتح الأعظم لكة.. ذلك الذي حرر بيت الله العتيق من وثنية الشرك، وطوى هذه الصفحة من سجل شبه الجزيرة العربية، فسقطت إحدى القوى الثلاث المناوئة للتوحيد في ذلك التاريخ.. وتطلع المسلمين لإزالة الكسرورية الفارسية والقيصرية البيزنطية، منذ أن تحقق هذا الانتصار.. ومع تحطيم الأوثان، وأذان الرسول ﷺ، في الناس ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحُقْرُ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].. كان طى صفحة الإحن والأحقاد والعداوات: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».. وكان تقرير الحرمات في الدماء والأموال: «أندوني أى بلد هذا؟ وأى شهر هذا؟ وأى يوم هذا؟».. هذا البلد الحرام، والشهر الحرام - «إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة بلدكم هذا وكحرمة شهركم هذا وكحرمة يومكم هذا.. اللهم اشهد»!.. وكانت إعادة التقويم القمرى إلى هيئته الأولى، يوم خلق الله السموات والأرض.. بعد أن أخلَّ بانتظامه نسيء-تأخير-الجاهلية.. وذلك زمناً لاعتدال الزمان، وتغير مجرى التاريخ!.. ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادةٌ فِي الْكُفْرِ يُضْلِلُ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحلُّونَهُ عَامًا وَيُحِرِّمُونَهُ عَامًا لَيُوَاطِّرُوا عِدَّةً مَا حَرَمَ اللَّهُ﴾ [التوبه: ٣٧] ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، و﴿إِنْ عِدَّةُ الشُّهُورُ عِنْدَ اللَّهِ أَثْنَا عَشْرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [التوبه: ٣٦] منها أربعة حرم: الثلاثة متولدة ورجب مفرد.. ألا هل بلغت.. اللهم اشهد»<sup>(١)</sup>!

فكان الفتح المبين - الذى استدار به الزمان، وتغير به مجرى التاريخ.. أيضًا فى رمضان!..

(١) ابن عبد البر (الدرر في اختصار المغازي والسير) ص ٢٢٥ تحقيق د. شوقي ضيف طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م.

● فلما صنع الإسلام: الأمة.. والدولة.. والحضارة.. والدار، التي مثلت المنارة للدنيا، والعالم الأول على الكوكب الأرضى.. جمعت «الصليبية» - الغربية» أطراف تحالفاتها - «البابوية»، و«فرسان الإقطاع»، و«برجوازية المدن التجارية».. وجيشت جيوش الحملات الصليبية، على امتداد قرنين من الزمان، ضد الإسلام وأئمته وعاليه (٤٨٩ هـ - ٥٦٩ هـ / ١٢١٤ م - ١٢٩١ م).. ويومئذ كان رمضان - أيضًا - ظرف الزمان لعدد من أعظم الانتصارات الإسلامية على الصليبيين.

فإلى «المنصورة» - مصر - جاءت الحملة التي قادها «الملك - القديس» لويس التاسع (١٢١٤ م - ١٢٧٠ م).. ويومئذ - كما يقول المقريزى (١٢٦٥ هـ / ١٣٦٥ م - ١٤٤١ م) وابن تغرى بردى (١٤١٠ هـ / ٨٧٤ هـ - ١٤٧٠ م - ١٤٧٠ م) - «انزعج الناس انزعاجًا شديدًا، وينسوا منبقاء كلمة الإسلام بديار مصر؟!.. لكن العلماء والفقهاء والمتصوفة - وفي مقدمتهم العز بن عبد السلام (١٢٦٢ هـ / ١١٨١ م - ١٢٦٢ م) - قد استنفروا في الأمة وفي الأمراء روح الجهاد «ووقع الفتير العام في المسلمين، فاجتمع في المنصورة أمم لا يحصون، من المطوعة والغزاوة والرجالات من عوام الناس الذي يريدون الجهاد، وأخذوا في الغارة على القرىج».. وكان العلماء والفقهاء والمتصوفة، مع جمهور المجاهدين - المطوعة - على أرض المعركة؟! - العز بن عبد السلام، وبهاء الدين بن الجميزي، والشريف عماد الدين، والقاضي عماد الدين القاسم بن إبراهيم بن هبة الله، وقاضي مصر ابن النبهان، وسراج الدين الأرموى.. إلخ.. إلخ.

فكان النصر، الذي بدأت وقائعه في رمضان سنة ١٢٤٩ هـ - سنة ١٢٤٧ هـ، الذي انتهى بهزيمة الصليبيين، وأسر «الملك - القديس» لويس التاسع في دار القاضي ابن لقمان»!..

● وبعد ثلاث سنوات من هزيمة هذه الحملة الصليبية الفرنسية - في المنصورة - خرجت بعثة صليبية فرنسية من الحصن الصليبي في «عكا» (سنة ٦٥٠ هـ - سنة ١٢٥٢ م)، يرأسها رجل الدين «جليوم دربروك» متوجهة إلى بلاط الخان الوثني التترى في «قراقorum»، وظلت تتفاوض هناك خمسة أشهر، لعقد تحالف «صليبي - وثنى»؟! ضد الإسلام وال المسلمين؟!.. وبمساعدة النصارى النساطرة - الذين سبق وفروا من

الاضطهاد الكاثوليكي في أوروبا - وبواسطة «دوقوز خاتون» - الزوجة النسطورية لـ«هولاكو». تم هذا التحالف غير المقدس بين الصليبية والوثنية ضد الإسلام!.. فتحول الاجتياح التترى عن أوروبا - مقصده الأصلى - إلى عالم الإسلام.. فكان سقوط «بغداد» (سنة ٦٥٨ هـ - سنة ١٢٥٨ م) .. وسقوط «حلب» (سنة ٦٥٨ هـ - سنة ١٢٦٠ م).. وكان الزحف إلى مصر الكنانة، لإزهاق روح الإسلام وأمته وحضارته.. ووجه، يومئذ، «هولاكو» إنذاره إلى أمراء مصر، الذي قال فيه: «لقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وقتلنا العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب. وقد أغذر من أغذر»؟!

ومرة أخرى.. نهض العلماء باستنفار روح الجهاد في الأمة، واستدعاء قيمة العدل في تحمل أعباء المعركة عند الأمراء.. فانعقد في «قلعة الجبل» - بالقاهرة - مؤتمر ضم القضاة والفقهاء والأعيان والأمراء، وخطاب فيه العز بن عبد السلام الأمراء فقال: «إنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم قتالهم. وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشرط لا يبقى في بيته المال شيء، وتبيعون مالكم من الحوائض - (التحف) - المذهبة والآلات النفيسة، ويقتصر كل الجندي على مركوبه - (فرسه) - وسلامه، ويتساولوا هم والعامة. أما أخذ الأموال من العامة مع يقايها في أيدي الجندي من الأموال والآلات الفاخرة، فلا»؟!

فتوزعت أعباء الجهاد، وفق معايير العدل على الناس: «فأخذ السلطان عن كل رأس - من ذكر وأنتشى - ديناراً واحداً.. ومن الأموال والأوقاف أجرا شهر واحد.. ومن الأغنياء والتجار زكاة أموالهم معجلأ.. ومن الغيطان والسوقى أجرا شهر.. فجمع ستمائة ألف دينار»!..

وزحف المجاهدون للاقاء جحافل التتر، فكان اللقاء - على أرض عين جالوت - قرب «غزة» - ليصنعوا النصر الأول على الجيش التترى - الذي قاده «كتُبُغا» - النصراني النسطوري! - فانهزم التتر، لأول مرة في تاريخهم - في الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ - ١٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠ م - وتحقق النصر الذي حمى الوجود - وجود الأمة وحضارتها - من مصير الدمار الذي أصاب بغداد!.. فغدت الأمة، حتى يوم الدين، مدينة بوجوها لهذا النصر الذي تحقق في رمضان! (١).

(١) د. محمد عمارة (معارك العرب ضد الغزاة) ص ٨٩ - ١٢١. طبعة دمشق سنة ١٩٨٨ م.

● وكما عقدت الصليبية الغربية ذلك التحالف القديم مع «الوثنية» ومع «النساطرة»، الذي كانوا ضحايا لاضطهادها، ضد الإسلام وأمته ودياره.. تكرر المشهد في التاريخ المعاصر.. فتحالفت الصليبية الغربية مع الصهيونية- رغم تاريخ اضطهادها لليهود- ضد وطن العرب وعالم الإسلام.

وبعد هزائم (سنة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م) و(سنة ١٢٧٦هـ - ١٩٥٦م) و(سنة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م) جاء النصر، الذي «افتض فيه وبه العرب بكاره العسكرية الصهيونية»!.. في المعركة التي خاضها الصائمون، الذين جعلوا نداءهم القتالي «الله أكبر».. جاء هذا النصر في العاشر من رمضان سنة ١٢٩٣هـ - السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣م.

وفي ذلك التاريخ - في شهر الصيام - كان ميلاد النصر الأول على العسكرية الصهيونية.. وكان هو التاريخ الذي ولد فيه جيل جديد، جيل «فتیان الانتفاضة»، الذين جسدوا الإرادة العربية والإسلامية بتفجير الانتفاضة الأولى في الثامن من ديسمبر سنة ١٩٨٨م.

\* \* \*

هكذا كان الصوم في شريعة الإسلام.. وفي تاريخ المسلمين: الجامعة الكبرى لتربيّة الإرادة الإنسانية، حتى يشتد عود الإنسان، فيقهر الشمار المرة لغرائزه الحيوانية، ويقهر التحدّيات التي تواجهه الإسلام وأمته وحضارته.. فبه يكون النصر في الجهاد الأكبر وفي الجهاد الأصغر جمِيعاً!..

وصدق رسول الله ﷺ، إذ يقول: «من سرَّه أن يذهب كثير من وحر صدره فليصم شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر».

وذلك شريطة أن يكون الصوم لله.. فتقوى به إرادة العابد.. وتنفسح أمامه آفاق حسنات المعبد!

\* \* \*

## الفصل الثالث عشر

### فى الرؤية المستقبالية

منذ ما يزيد على ثلاثين عاماً، بدأت البقظة الإسلامية دورها من الصعود، الذي أثار ويتير العديد من ردود الأفعال، إن فى داخل عالم الإسلام، أو على النطاق الدولي - فى مراكز الأبحاث والدراسات، ودوائر صنع القرار ..

ولقد تراوحت ردود الأفعال هذه بين الترحيب والاستبشر.. والحذر والتخوف.. والمواجهة والقهـر.. وتفجير الصراعات الدموية، التي تخـطـت وحشيتها الكثـيرـ من سوابق العنف فى التاريخ! ..

وإذا كانت دوائر كثـيرـ قد اختلفـت وتخـتـافـت فى موقفـهاـ من هذهـ البـقـظـةـ الإـسـلامـيـةـ المعـاصـرـةـ، فـيـانـ هـذـهـ الاـخـتـلـافـاتـ قدـ اـتـخـذـتـ فـىـ أحـيـانـ كـثـيرـ إـجـابـاتـ مـخـتـلـفةـ عـلـىـ أـسـئـلـةـ وـاحـدـةـ طـرـحـتـ نـفـسـهـاـ عـلـىـ هـذـهـ الدـوـاـرـيـنـ الـعـنـيـةـ بـهـذـهـ الصـعـودـ لـظـاهـرـةـ المـدـإـسـلامـيـ..ـ الجـديـدـ.

ولم تقف هذهـ الأـسـئـلـةـ عندـ يـقـظـةـ الـمـسـلـمـيـنـ، وـصـعـودـ تـيـارـاتـ الـحـرـكـاتـ إـسـلامـيـةـ..ـ وإنـماـ اـمـتـدـ الـتـسـائـلـ، أـيـضاـ، إـلـىـ إـسـلامـ..ـ وـإـلـىـ أـبـعادـ السـيـاسـيـةـ وـالـتـشـريـعـيـةـ وـالـحـضـارـيـةـ عـلـىـ وـجـهـ الـخـصـوصـ..ـ

● مدى امتلاكه للبديل الحضاري القادر على تحريك أمة؟ والصالح ليحل محل الأيديولوجيات الغربية، التي وفت، عبر قرنين، من أوروبا إلى ديار الإسلام.. والتي عجزت عن أن تحدث تقدماً حقيقياً في هذه الديار؟..

● وهل سيكون هذا «التيار الإسلامي» أحسن حظاً من الأيديولوجيات الغربية.. فتتجذر تطبيقاته في الواقع الإسلامي؟ أم أنه سيكون مثل تلك الأيديولوجيات: صفحة تطاوى، دون أن تحدث تقدماً حقيقياً؟؟

● وما هي الإيجابيات.. والسلبيات.. والتحديات التي تصاحب هذا الصعود الإسلامي، الذي شغل ويشغل كل فرقاء العالم الذي نعيش فيه؟؟.. أسئلة خمسة.. وإجابات.. تقدم نموذجاً لواحد من الاجتهادات في هذا الميدان..

## السؤال الأول:

هل يحافظ الإسلام حتى يومنا هذا على دعوته الشاملة؟

## الإجابة:

إن الدعوة الشاملة للإسلام تعنى أنه دين ودنيا، دنيا وأخرة، ومنهاج شامل لتدبير ملكات الروح والجسد، وشئون الفرد والأمة والإنسانية، وسياسة الدولة والمجتمع، وتقديم منظومة لقيم تحكم سائر شئون الحياة..

وفيما يتعلق بالجانب العقدي والشعائري والروحي، لم يجادل أحد في استمرارية حيوية الإسلام في ميادينه، بأكثر مما هي في الشرائع الدينية الأخرى. فحتى عندما تراجعت أو عزلت حاكمة الشريعة الإسلامية عن بعض ميادين الدولة والمجتمع والسياسة والاقتصاد.. وخاصة في ظل الاستعمار الغربي لاغلب أوطان عالم الإسلام.. فقد ظل الجانب العقدي والشعائري والقيمي قوى التأثير والجانبية في حياة المسلمين.. وجاذبية هذا الجانب الروحي تتزايد في هذه السنوات، فنشهد انعطافاً جماهيرياً للتدين، والحفاظ على الشعائر العبادية، وتحري معالم الحلال والحرام في العقائد والعبادات.

أما الشق التشريعى والقانونى من الإسلام، وتدبیره لسياسة الدولة والمجتمع -والذى عزلت حاكميته عن كثير من الميادين الحياتية؛ لتحول محله القوانين الوضعية

ذات الفلسفة الغربية في التشريع والتقنين - فبان هذا العزل لم يلق قبولاً لدى جمahir المسلمين، الذين أحسوا أن فيه قطعاً لإحدى رتني الإسلام! ..

ولذلك شملت حركة الإحياء الديني الإسلامي، الحديثة والمعاصرة الإسلام العقدي والشعائري، وأسلام الشريعة والسياسة والاجتماع والاقتصاد جميعاً ..

وعلى حين ظن البعض أن الإسلام قد تخلّى - بعد محاولات الاستعمار تحجيمه، وحصره في العقيدة والشعائر - عن شموليته وتكامل منهاجه، كانت شمولية حركة اليقظة والإحياء الديني المعاصرة تبدياً لهذا الظن.. فمحاولة علمنة عالم الإسلام ودوله وسياسة مجتمعاته لم تتجاوز القشرة التي أخذت تتحطم أمام سعي المد الإسلامي، الحديث والمعاصر.. ويشهد على هذه الحقيقة - حقيقة شمولية الدعوة الإسلامية، واستعصاء الإسلام على العلمنة والاختزال في العقيدة والتخلّى عن الشريعة حتى علماء الغرب الذين وعوا أبعاد تكامل مقاصد الإحياء الإسلامي المعاصر.. فعالم الاجتماع الإنجليزي «أرنست جيلنر» Ernest gellner يكتب في مجلة «شئون دولية» International Affairs - عدد يناير سنة ١٩٩٠ م - عن هذه الحقيقة التي فاجأت الغرب فيقول: «إن النظرية التي يعتقدها علماء الاجتماع، والتي تقول إن المجتمع الصناعي والعلمي الحديث يُقوّض الإيمان الديني - مقوله العلمنة - صالحة على العموم.. وهي تتباين في التفاصيل والفارق الدقيق من حالة إلى حالة، لكن التأثير السياسي والسيكولوجي للدين قد تناقص عملياً في كل المجتمعات، وبدرجات متفاوتة وأشكال مختلفة، وعالم الإسلام استثناء مدهش و تمام جداً من هذا. فالإسلام مقاوم للعلمنة، وسيطرته على المؤمنين به قوية، وهي أقوى الآن مما كانت قبل مائة سنة مضت.. فهو لم يقبل قواعد المجتمع العلماني، مثلما فعلت المسيحية بعد صراعات كثيرة ومؤلمة.. وكان - الإسلام - على قدر من الرسوخ في المجال السياسي والاجتماعي يجعله رافضاً لاً تمييز بين ماله وما لقيصر، بحيث لا يسمح أبداً لمعتنقه أن يصبحوا مواطنين خاضعين لديمقراطية علمانية ..».

فحفاظ الإسلام على شمولية دعوته، حتى يومنا هذا، حقيقة يشهد بها أهل العلم، حتى من غير المسلمين! .

\* \* \*

## السؤال الثاني:

هل يمكن لدولة عصرية اعتماد الإسلام نظام حكم؟

### الإجابة:

إن الصيغة الوسطية الجامعة التي مثلت وتمثل المنهاج الإسلامي في مختلف ميادين النظر والتطبيق، تجعل الإجابة بـ«نعم» على هذا السؤال.

فلو أن الوحي الإلهي قد جاء لشئون الدنيا ولتدابير الدولة ونظام الاجتماع بالنظم المفصلة والقوانين واللوائح الجامعة المانعة، لتجاوز تطور الدنيا والدولة والمجتمع هذه القوانين، ولفقد الإسلام صلاحته كنظام حكم للدولة العصرية..

لكن الإسلام قد جاء بتفصيل الاعتقاد والشعائر العبادية والقيم الخلقية.. وفي شئون الدنيا والدولة والاجتماع، فصل في الثوابت وأجمل في المتغيرات..

فهو قد حدد المبادئ والقواعد والمقاصد، وترك للاجتهاد الفقهي الإبداع المنطور في النظم والآليات والمؤسسات والفقه المواكب لمستجدات الحياة.. ولذلك، كانت الشريعة وضعاً إلهياً ثابتاً، وكان الفقه اجتهاداً إنسانياً وضعيّاً محكوماً بالشرع الإلهي الثابت، الأمر الذي أتاح ويبتigh لأصول الشريعة أن تمد - بالاجتهاد الفقهي - الفروع الجديدة التي تتخلل المستجدات والمتغيرات، دونما قطعية مع الأصول والجذور والتابع وفلسفة التشريع الإلهي ومبادئه وقواعده ومقاصده.. وبذلك تظل إسلامية النظم في الدولة الإسلامية دائمة، مع فتح أبواب الاجتهاد لكل المستجدات والمتغيرات..

ولهذه الحقيقة، تميز «التجديد الإسلامي» - الذي هو سنة من سنن الاجتماع الديني الإسلامي، لا تبدل لها ولا تحويل وفق قول رسول الله ﷺ: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها» - رواه أبو داود - تميز ويتميز هذا «التجديد الإسلامي» عن كل من «الجمود والتقليد» - الذي يغلق أبواب التطور ومواكبة المستجدات. وعن «حداثة القطعية المعرفية مع الموروث». والتي تعزل الجديد الديني عن الثابت الديني الموروث.

وإذا كانت «النظم» - كل النظم - بمعنى «الأطر» و«الآليات» و«المؤسسات» - هي ابداع بشري - بينما الوحي الديني والثابت الإلهي هو «المبادئ» و«القواعد» و«المقاصد» و«أحكام الشواهد»، فإن التجديد في النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية للدولة هو ميدان مفتوح الأبواب، بشرط أن تكون النظم المتطورة هي الأقدر على تحقيق أقصى الدرجات من المبادئ والقواعد والمقاصد التي جاء بها الوحي الديني والشريعة السماوية.

فوقوف الإسلام، في المتغيرات الدينوية، عند «فلسفة التشريع»، وتركه تفصيل التشريع والتقيين للاجتهداد والتجدد، هو الذي ميز النموذج الإسلامي عن الشرائع السماوية التي سبقت رسالة محمد ﷺ .. ففي تلك الرسائلات السابقة كان التطور عندما يتجاوز الشريعة يأتي رسول لله جديداً بشرعية جديدة.. أما في الشريعة العالمية والخاتمة - الشريعة الإسلامية - فإن التجدد والاجتهداد يقومان بمهمة مواكبة المستجدات، مع الحفاظ على الروح الإسلامية السارية في النظم التي توافق وتستجيب لكل جديد.

\* \* \*

### السؤال الثالث:

هل النظام الإسلامي للحكم مرحلة حتمية على الشعوب العربية أن تمر بها في معرض تطورها؟

### الإجابة:

إن النظام الإسلامي، بالنسبة لشعوب أمتنا، ليس «مرحلة» من مراحل تطورها.. لم يكن كذلك في الماضي، ولا يمكن أن يكون كذلك في الحاضر أو المستقبل.. ذلك أن إسلامية النظام هي - في كلمة موجزة - إسلامية المرجعية في هذا النظام.. وإسلامية المرجعية في النظام الإسلامي هي شرط لصحة واكتفاء الإيمان الديني بالله، سبحانه

وتعالى.. فالإسلام لا يكتمل إذا نحن تصورنا الله مجرد خالق للكون والإنسان، وعزلنا شريعته عن أن تكون لها حاكمية التدبير في دنيانا ودولتنا؛ لأن الله، في التصور الإسلامي: خالق، وراعٍ ومدير **﴿أَلَا لِهِ الْخُلُقُ وَالْأَمْرُ﴾** [الأعراف: ٥٤]- **﴿فَالَّذِي أَعْطَنَا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾** [طه: ٤٩ - ٥٠]- وشرط ربيكم يا موسى **﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَنَا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾** [طه: ٤٩ - ٥٠]- وشرط الصحة والاكتمال للإيمان بالله واليوم الآخر أن تكون المرجعية والحاكمية في شئون الدنيا. ومنها الدولة والمجتمع -الوحى الإلهى- البلاغ القرائى - وللسنة النبوية- البيان النبوى للبلاغ القرائى **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ فَإِن تَنَازَعُوكُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾** [آل عمران: ٦٠] . **﴿الشَّيْطَانُ أَن يُضْلِلُهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾** [النساء: ٥٩]

فالنظام الإسلامي، بالنسبة لشعوب الأمة، هو عودة إلى الأصل، يتحقق به اكتمال وكمال الإسلام، وليس مرحلة توجد ثم تتواتى من حياة شعوب أمتنا.. وبعودته هذا النظام تستأنف الأمة المسيرة الأصلية والطبيعية، وتنهي القطيعة الطارئة مع هذا النظام، تلك القطيعة التي أحدثها -أساساً- الاستعمار الغربي وفلسفته الوضعية وقوانيمه اللادينية ..

إن هذه الأمة قد ولدت من بين دفتير القرآن الكريم، فمن «رحم» هذا القرآن ولدت العقيدة والقيم والدولة والعلوم الشرعية.. ومن «رحم» هذا القرآن ولدت فلسفة العلوم الحضارية والمدنية، التي جاءت حقائقها وقوانينها من آيات الله في الكون والأفاق.. فالآمة والدولة والحضارة والقيم، جميعها ثمرة -بنسب متفاوتة ودرجات مختلفة- للإسلام -ولقد عاشت الآمة، بشعوبها المتميزة، وأوطانها المتعددة، عبر الزمان والمكان، وتطورت في ظل النظام الإسلامي.. ولذلك، فإن تطورها المستقبلي ممكن أيضاً في ظل النظام الإسلامي.

فهذا النظام الإسلامي -بالتجديد والاجتهداد- يفتح باب التطور أمام مراحل حياة هذه الشعوب.. وليس مجرد مرحلة من مراحل حياتها.

\* \* \*

## السؤال الرابع:

هل تأخذ ظاهرة اليقظة الدينية التي برزت في السنوات والعقود الماضية منحى إيجابياً؟

### الإجابة:

ظاهرة اليقظة الإسلامية والاجتماعية والإحياء الديني، التي برزت واجتذبت جماهير واسعة - على نحو غير مسبوق - في العقود الأخيرة، من الظلم ومن الخطأ النظر إليها. عند تقويم الإيجابيات والسلبيات فيها - ككتلة واحدة صماء.

إذا مثلت هذه الظاهرة الإسلامية تياراً إحيائياً، يتغيا العودة الكاملة إلى كامل الإسلام، واتخاذ هذا الإسلام منهاجاً شاملًا لكل مناحي الحياة - العقدية والعبادية والخلقية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والمعرفية.. إلخ - فإن في هذه الظاهرة العديد من الفصائل والتيارات التي تتمايز في إطارها العام.

● فهناك الجماهير العريضة، غير المؤطرة ولا المنظمة في أحزاب أو حركات، والتي اندفعت وتندفع ملابسها إلى الالتزام بأحكام الإسلام، باحثة عن حدود الله في شؤون حياتها، وعن معالم الحلال والحرام في هذه الحياة.. ومحبوبة سنن الإسلام وشعائره في تفاصيل شئونها الحياتية..

● وهناك فصائل وتيار العمل الخيري - غير السياسي - الذي أقام ويقيم، في عالم الإسلام، آلاف الجمعيات والمؤسسات الخيرية والإغاثية والتنموية والصحية والفكرية والثقافية والعلمية والدعوية.. إلخ .. وهو تيار يقيم قطاعاً من البنى التحتية التي تسهم في تخفيف مشقات حياة الناس، بواسطة الحلال الإسلامي، مبرزاً دور الإسلام في البناء الاجتماعي والإنساني.

● وهناك أهل الفكر والاجتهاد والتجديد، الذين نذروا أنفسهم لصناعة الفكر والثقافة انطلاقاً من المنظور الإسلامي، يبدعون في ميادين الفكر الإسلامي، على تعدد وتنوع هذه الميادين، إصلاحاً لمناهج هذا الفكر، وتجديداً للفلسفة، وصياغة لعالم

وسمات وقسمات مشروع حضاري إسلامي، يكون دليلاً لعمل لكل فصائل وتيارات الإحياء الإسلامي المعاصر..

● وهناك التيار الحركي المنظم والمؤطر في أحزاب وجماعات وجمعيات ذات مقاصد سياسية.. وأغلب هذا التيار - على امتداد أوطان الأمة - يلتزم الوسطية الإسلامية والاعتدال الإسلامي.. فيدعى إلى برامجه ومقاصده بالكلمة الطيبة، والحكمة والوعظة الحسنة، ويحاور ويجادل الفرقاء غير المسلمين بالتي هي أحسن - بل ويصبر ويصابر على الكثير من ألوان القهر والتضييق والعقبات والحجر التي تصب عليه وتوضع في طريقه ويعاني الابتلاء بها.. وهو يحتمل إلى جماهير الأمة عبر آليات الشورى والديمقراطية..

● وهناك - من أهل الحركة - شريحة محدودة العدد، اختار شبابها طريق الغضب والرفض والعنف والاحتجاج..

إما «رد فعل نزق» لعنف النظم والحكومات التي حرمتهم من العمل القانوني السلمي والمشروع.. وإما للتأنيات فاسدة لبعض المؤثرات الإسلامية.. من أحاديث الفتن وأخر الزمان.. ومن فتاوى عزلوها عن ملابسات صدورها.. وإما للأمررين معاً.. وهذه الشريحة، وإن قل عددها، إلا أن صوتها قد أصبح عالياً، كطبيعة أصوات الغضب والاحتجاج دائمًا.. وبسبب من المخطط الإعلامي الخبيث الذي يسلط على هذه الشريحة كل الأضواء؛ ليشوّه كل الصورة، وليلقي ظلال هذه الشريحة على كل الموكب العريض لظاهرة اليقظة الإسلامية المعاصرة.. وذلك بهدف حجب الإيجابيات الكبيرة والكثيرة لاعظم ظواهر عصرنا عن أنظار الجماهير!.

\* \* \*

### السؤال الخامس:

من العدو الأول للإسلام حالياً؟

### الإجابة:

إن أوطان عالمنا المعاصر، هي بالنسبة للإسلام المعاصر، داران:

١- دار استجابة، استجاب شعوبها للدعوة الإسلام، وأصبحت تكونُ أوطان الأمة الإسلامية، بشعوبها وقبائلها وقومياتها المتميزة.

٢- ودار دعوة، لم تستجب شعوبها للدعوة الإسلام، فظلت على شرائعها الدينية السابقة، أو على وثنيتها أو إلحادها المادي.. مع وجود أعداد- مئات أو آلاف أو ملايين- استجابوا للإسلام من بين أبناء هذه الشعوب.

ونظرة الإسلام إلى هذه الشعوب، التي لم تستجب بعد لدعوته ليست النظرة إلى العدو، فضلاً عن أن يكون العدو الأول.. وإنما هي النظرة «الأمة- جماعة- الدعوة»، التي يعرض المسلمون عليها الإسلام، تاركين لها حرية الاختيار، وفقاً لقاعدة القرآنية ﴿لَا إِكْرَاهُ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

أما العدو الأول للإسلام، فهو ذلك الذي يناسب الإسلام وأمته وعالمه العداء، جاعلاً منه ومن أمته وعالمه العدو الأول، وموجهاً إلى المسلمين آليات أحلافه العسكرية ومؤتمرات مؤسساته السياسية، وضغطه منظماته الاقتصادية، واحتلال ثقافته وإعلامه.

وإذا كان الغرب قد تجاوز مرحلة التأمر إلى طور الإعلان عن اتخاذه الإسلام وعالمه وأمته عدواً أول - بعد أن فرغ من نزاعه الداخلي - في إطار حضارته الواحدة، مع الشمولية الماركسية - فإنه هو الذي يفرض على المسلمين أن ينظروا إليه نظرتهم إلى العدو..

وبعبارة عالم الاجتماع الإنجليزي «إدوارد مورتيمر» Edward Mortimer، في مجلة «شئون دولية» - الصادرة في كمبريج - عدد يناير سنة ١٩٩٠ مـ - «فلقد شعر الكثيرون في الغرب بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفوي - وإنبراطورية الشر الشيوعية - .. وبالنسبة لهذا الغرض، فإن الإسلام جاهز في المتناول!».

وهذا هو الذي أعلنته دراسات وأبحاث كثير من مؤسسات الغرب البحثية والاستراتيجية والسياسية.. بل المؤسسات الموجهة لآل الحرب والدمار الغربية - مثل

خلف الأطلنطي، على لسان أمينة السابق «ويلي كلايس».. وممثل المجلس الوزاري الأوروبي - على لسان رئيسه السابق «جياني ديميكيس».. - «النيوزويك» الأمريكية - عدد ٢ يوليو سنة ١٩٩٠ م... ومثل الرئيس الأمريكي الأسبق «نيكسون»، الذي دعا الغرب - في كتابه (الفرصة السانحة) - إلى أن يحدد للشعوب الإسلامية الخيار العلماني، الذي يربط المسلمين بالغرب من الناحية السياسية والاقتصادية!.. معلنًا أن انتصار التيار الإسلامي، الذي يسعى إلى «استرجاع الحضارة الإسلامية، وتطبيق الشريعة الإسلامية، واتخاذ الإسلام دينًا ودولة، سيؤدي إلى ردود فعل خطيرة في العالم؟!».

وأخيرًا.. مثل الرئيس الأمريكي «بوش - الصغير»، الذي أعلنها حرباً صليبية، فور أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ م !!

فالذين يتخذون الإسلام عدواً أول، هم الذين يفرضون العداوة على أمّة الإسلام.. وإذا كان علينا أن نتحاشى المجابهات العدائية ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً، فإن هذه المجابهات تصبح قدرًا لا مفر منه إذا كتب علينا القتال دفاعًا عن الذات الحضارية والهوية الإسلامية لامة هذا الدين.

\* \* \*

## فهرس الكتاب

## **الفهرس**

<b>الموضوع</b>		<b>الصفحة</b>
تمهيد: عن الميلاد القرآني للأمة والحضارة.....	٥	.....
الفصل الأول: في حقوق الإنسان.....	١٢	.....
الفصل الثاني: في الحرية.....	٢٣	.....
الفصل الثالث: في حرية الضمير.....	٣١	.....
الفصل الرابع: في الحرية الاجتماعية.....	٣٧	.....
الفصل الخامس: في نموذج التغيير الاجتماعي.....	٥٧	.....
الفصل السادس: في أولويات العمل الخيري.....	٦٢	.....
الفصل السابع: في السياسة الإسلامية.....	٧١	.....
الفصل الثامن: في التعددية.. والتتنوع.. والاختلاف.....	٧٩	.....
الفصل التاسع: في التفاعل الحضاري.....	٨٧	.....
الفصل العاشر: في العقلانية المؤمنة.....	٩٢	.....
الفصل الحادى عشر: في القيم الإسلامية.....	١٠٣	.....
الفصل الثانى عشر: في تربية الإرادة الإنسانية.....	١١١	.....
الفصل الثالث عشر: في الرؤية المستقبلية.....	١٢١	.....

رقم الإيداع ٢٠٠٤ / ٢٠١٢٩

الترقيم الدولي I.S.B.N - 977-09-1153-4

## العطاء الحضاري للإسلام

- لقد ولدت أمتنا من بين دفتي كتاب .. فكان القرآن الكريم هو «الرحم» الذي انبثقت منه «الجواجم الخمسة» التي بلورت هذه الأمة .. ووحدتها .. وميزتها .. عبر تاريخها الطويل ..
- جوامع : العقيدة.. والشريعة.. والحضارة.. ووحدة الأمة.. ودار الإسلام.
- ومن القرآن الكريم تبلورت منظومة «القيم الثوابت» ، التي أصبحت معايير إسلامية الأمة .. وإسلامية الدولة .. وإسلامية الحضارة .. وإسلامية الحياة ..
- ولهذه الحقيقة، تجاوز الإسلام حدود الدعوة الدينية، إلى حيث أصبح : أمة .. ودولة .. وحضارة .. منذ فجر ظهوره ، ولحظة انبثاق نور القرآن الكريم ..
- ولأن الإسلام هو خاتم الوحي والنبوات والرسالات.. كان القرآن - ولا يزال - الحصن الذي يحمي مقومات الأمة الخاتمة من عاديات التحديات .
- ولإلقاء الأضواء على هذه الحقائق - حقائق العطاء الحضاري للإسلام - يصدر هذا الكتاب.

